

وديـع فلسطين

انا والمكتبات الخاصة

بقلم وديـع فلسطين

* * *

اتمثل باستاذينا الكبيرين شفيق جبري وظافر القاسمي ، هذا « بانا والشعر » و « انـا والنثر » ، وذاك « بانا والرياضة » و « انا والمطبعة » واضع لهذا المقال عنوان « انا والمكتبات » لان الموضوع يستمد مادته من معين الذات ، ولان الحديث المستطرد الذي اسوقه كيفما اتفق عماده الصلة الشخصية والمرويات التي طرقت اذني . ولا اعرف مرجعا ارد اليه القارىء ليتحقق من سداد هذا القول وصحته .

فمدة الاديب كتبه ، يشتريها ويقتنيها وتهدى اليه ويستهديها ويستنسخ ما ندر منها ويحافظ عليها مهما كلفه ذلك من مال ، وينميها ويكثرها بلا حدود مهما ضيق على نفسه وعلى اسرته في الحيز المكاني للعيش ليتسع بيته للكتب وان ضاق بسائر الامتعة واسباب الراحة .

وقد رايت راي العين مكتبات كثيرين من اعلام الفكر : خليل مطران والدكتور فارس نمر وعباس محمود العقاد وسلامه موسى واسماعيل مظهر والدكتور امير بقطر والشيخ حافظ وهبة وطاهر الطناحي والدكتور ابراهيم ناجي وعزيز خانكي ، عليهم جميعا الف رحمة ، والدكتور طه حسين والدكتور فؤاد صروف ومحمد جميل بيهم والدكتور محمد صبري السوربوني ومحمد ابو الفضل ابراهيم ومحمد عبد الغني حسن وعبد الله التل وحسن كامل الصيرفي والبير اديب ومحمود تيمور وابراهيم المصري وعلي ادهم والبحاثة لفريد الذي يعد اسطورة من الاساطير رشاد عبد المطلب والمجاهد العربي الاكبر محمد علي الطاهر وغيرهم وغيرهم من فضلاء الاصدقاء الذين اذنوا لي باقتحام عرينهم المزدان بالكتب ولم يغاروا عليها من نظراتي « البريئة » ! واقول «البريئة» لانني لم اقترض في عمري كتابا من احد ، وان كان كثيرون « اقترضوا » كتبي فكان هذا آخر العهد بها ! وحالي في هذا خير من حال الصديق جورج صيدح الذي « تسلى » زواره على كتبه « يقترضونها » واحدا واحدا حتى اتوا عليها جميعا وخلت الخزائن والحوامل الا من الارفف الخشبية يتراص بعضها فوق بعض انتظارا ـ ربما الى يوم الحشر ـ لعودة الكتب « المستعارة » اليها !

ومن عادة الاديب ان يعتز بكتبه فلا يفرط فيها مهما غلا الثمن وعظمت التضحية . والذين اكرهوا على ترك مكتباتهم الخاصة في فلسطين كارملة جورج انطونيوس وخليل السكاكيني وروكس بن زائد العزيزي وعيسى الناعوري والبدوي الملثم يعقوب العودات وغيرهم (كمكتبتي عادل زعيتر واسعاف النشاشيبي) ما زالوا يتحسرون بمرارة على فقد هذه الكتب الاثيرة . والعقاد كان يحتفظ لنفسه بمكتبتين : احداهما ، وهي المكتبة الام ، في منزله العتيق في مصر الجديدة ، والاخرى في منزل الاسرة في اسوان ، وان تكن الاولى اوفى وازخر ، وذلك لانه لم يكن يتصور الحياة بغير كتب .

وعندما اعتزم الدكتور احمد زكي ابو شادي الهجرة الى امريكا في عام ١٩٤٦ ، لم يستطع ان يفرط في كتبه، فعمل على شحنها بكل مفرداتها الى نيويورك حيث اقام فترة ، ثم الى وشنطن حيث استقر الى وفاته عام ١٩٥٥ . على ان ابا شادي ، في لهفته على الهجرة ، لم يستطع انجاز اجراءات شحن الكتب لتسافر معه في باخرة واحدة ، فتركها اطنانا في صناديق مغلقة ، خزنت في مستودعات « البوندد » في جمرك الاسكندرية مدة اربت على اربع سنين ريثما تستوفى الاجراءات الدواوينية للشحن . وترتبت عليه تلقاء ذلك رسوم باهظة للخزن والتامين والارضية اداها راضيا . على انه لما استبطا وصول الكتب واعيته الحيلة في استعجال اجراءاتها ، كتب الي يستوصيني بها خيرا . وكان قصاراي ان بعثت برسالة شخصية الى صديقي الراحل الدكتور محمد توفيق يونس وكيل وزارة المالية انذاك ورئيس ديوان المحاسبة في ما بعد ـ وهو من اعاظم الرجال علما وخلقا وفضلا مع تواضع جميل ـ فبادر باصدار امره في لحظة باعفاء الكتب من جميع الاجراءات والحاقها بصاحبها الدكتور ابي شادي تقديرا لعلمه وتمكينا له من الاضطلاع

بمهمته الادبية في مهجره .

وكذلك الدكتور فؤاد صروف سبق بشحن مكتبته الخاصة الى بيروت قبل ان ينتقل اليها للاقامة الدائمة فيها حرصا منه على « رفاق العمر » .

وعلى اعتزاز الادباء بمكتباتهم الخاصة ، فقد تعرض بعضهم لوطأة الحياة وقست عليهم ظروفهم ، فاضطروا على كره الى بيع مكتباتهم استعانة بثمنها على تذليل هذه الضائقة الطارئة . فباع ابراهيم عبد القادر المازني مكتبته غير مرة ، وباع العقاد مكتبته في فجر حياته ، وباع ابراهيم المصري مكتبته وباع البير اديب مكتبته ، ثم عادوا جميعا الى تكديس الكتب وتحصيلها ، وتكاملت لهم بذلك مكتبات بديلة فيها عوض عن بعض ما فقدوا .

ولا ريب في ان المكتبات الخاصة تحتل من نفوس اصحابها مكانا عزيزا لانها تمثل المنتدى الفكري الذي يخلو اليه المفكر في اماسيه ، ويرجع اليه استزادة في العلم واستقصاء لواقعة او خبر ، ولانها في مجملها تمثل صورة من ذوق المفكر ، وتتراءى فيها تطورات تفكيره واهتماماته في مراحل الحياة المختلفة . ولهذا تبقى للكتب فضلا عن قيمتها الفكرية ، قيمة عاطفية تلتصق بقلب المفكر مباشرة ، بحيث « يتعذب » عذابا فعليا اذا ضاع منه كتاب او استباحه مستبيح قبيح .

وكان صديقنا سلامة موسى قد تعرض للاعتقال في حكم اسماعيل صدقي باشا سنة ١٩٤٨ او ١٩٤٩ هو وطائفة من اهل الفكر . ولما عاد الى داره ذهبت للتهنئة والسؤال عن صحته ، فاسر الي بانه شديد الحزن على عشرات من الكتب نقلت من مكتبته لان اغلفتها حمراء وقد توهم رجال الضبط ان كل كتاب ذي غلاف احمر لا بد ان يكون خطير المحتوي ، فاخذوها جميعا ولم ينج منها حتى « القاموس العصري » لصديقنا الراحل الياس انطون الياس ! .

وحدثني فتحي الرملي بدوره عن مكتبته التي جددها ثلاث مرات ، لا لرغبته في التجديد و « تغيير الجلد » ، بل لان كتبه صودرت المرة تلو المرة وذهبت بركائبها طعمة للنار .

ولم نسمع ان لصا من اللصوص المحترفين سطا على مكتبة خاصة ، بل لعل المكتبات الخاصة هي آخر ما يطمع فيه اللصوص وقطاع الطرق الذين يبحثون عما خف حمله وغلا ثمنه . ولكن هناك لصوصا للكتب لا يعدمون وسيلة في سرقة المخطوطات النادرة وتهريبها وبيعها باثمان فاحشة . وهؤلاء هم « ارقى » انواع اللصوص لانهم ذوو علم وفهم ، ولانهم على صلات علمية « محترمة » بطلاب الكتب وقانصيها في ديار شتى . وواضح بداهة اننا اخرجنا من زمرة اولئك اللصوص الادباء ومدعي الادب الذين يحسنون « اقتراض » الكتب ولا يحسنون ردها . فهؤلاء « مقترضون » لا لصوص ، وشتان بينهما في الاسم وان اتحدا في الفعل !

ولكن ما هو مصير هذه المكتبات الشخصية التي يفاخر بها اصحابها ويعتزون ، وتحصى بالمئات في صعيد العرب ؟ .

هناك اقوام — وعددهم قلة — يوصون بمكتباتهم لدور الكتب الرسمية او للهيئات والمجامع العلمية ، لتبقى للكتب كرامتها ، وتخلد اسم مهديها ، وتنفع الناس اعمارا مديدة . ومن هؤلاء القوم الكرام العظام احمد تيمور باشا والامير مصطفى الشهابي وخليل مردم بك وخليل ثابت باشا ، وكلهم قد اهدوا مكتباتهم الخاصة الى هيئات علمية ، فحفظوا كتبهم من الابتذال المهين بعد موتهم .

ولكن هناك اقواما لا يكادون يتركون هذه الحياة حتى يبادر ورثتهم الى التخلص من مكتباتهم الخاصة ببيعها الى الوراقين وتجار الكتب ، فيكون مصير هذه الكتب النفيسة بما فيها من كتب تحمل اهداءات مؤلفيها ، البيع الرخيص على اسوار الحدائق وافاريز الطرق . وقد رايت بعيني راسي كتبا عليها اسماء الدكتور محمد حسين هيكل باشا وعلي ماهر باشا وطاهر الطناحي معروضة عرضا زريا على سور حديقة الازبكية بعيد وفاة كل منهم . وحز في نفسي بوجه خاص ان اسمع باذني حديث الطناحي الموله بكتبه المتيم بها المفهرس لدورياتها ولا سيما مجلة « الهلال » منذ صدورها ... فلا ينقضي اسبوعان على وفاته الا وقد ازجيت كتبه الاثيرة العزيزة على الافاريز يسومها كل مفلس ! .

وقد ما فجعني في كثير من القيم ما عرفته من امر مكتبة استاذنا الدكتور امير بقطر ، ولعلها اعظم مكتبة خاصة في موضوعات التربية وعلم النفس لان الدكتور بقطر كان من اوائل الرواد والمشتغلين في هذا الميدان . وفي صيف عام ١٩٦٦ سافر الدكتور بقطر الى النمسا لقضاء عطلته شانه في كل صيف ، وهناك عاجلته المنية بلطمة من لطمات القلب ، فعاد الينا محمولا في صندوق ، وكنت من جملة الذين اودعوه الثرى في قبر حديث انشاه لنفسه . ومن غرائب المصادفات ان هذا القبر ملاصق للحفرة المخصصة لي متى ناداني القدر ! ولم يكن للدكتور بقطر وريث ظاهر ، لان زوجته الانكليزية الفضلى سبقته الى لقاء ربها بسنة ، وكان وحيدا لابويه ولم يكن له الا ابناء خؤولة او عمومة من الدرجة الثالثة او الرابعة يعيشون في قرار الصعيد . وعلى الفور طبقت على تركته اجراءات « بيت المال » التي تقضي بالاستيلاء على مخلفاته لانقطاع ورثته ، وبيعت كل اشيائه بالمزاد ، حتى مكتبته النفيسة. وقد عبث الوراقون بكتبها ، وتناثرت مفرداتها على كل طوار ، وتعرضت للتمزق والتهتك والبلى لطول ما تناولتها ايدي المماكسين والمساومين .

وهناك مكتبات خاصة اقتنتها هيئات علمية مقدورة. فاشترت جامعة بيروت الاميركية مكتبة المرحوم الفيكونت

بقاء

يـذوب المـال في كفي كـاني
لظى والمـال في كفـي جليـد
فما ملكـت يدي شـيئا تبقى
ويغريـنـي البقـاء فاسـتزيد
يمر بي الجديـد فـلا اعيـه
سوى ان مر بي يـوم جديد
واخشـى ان يجيء غـد وكفي
بها شلل فتخطيء مـا تريـد
بقائي ، ما رويـت بكاس عيش
فان نضبت فقد نضب الوجود ؟

وديع ديب

فيليب دي طرازي بما فيها من مجموعات كاملـة نادرة للصحف والمجلات ، كما اشترت مجموعة كاملة من جريدة « المقطم » هي مجموعة « دار المقتطـف والمقطـم » التـي اهديت بعيد اغلاق الدار الى هيئة ثقافية فتولت هذه الهيئة بعد ذلك بيعها . واشترت بعض الهيئات الاسلامية في وشنطن مكتبة المرحوم الدكتور احمد زكي ابي شـادي . وباع العلامة المشهور البروفسير كريزويل المتخصص فـي الفنون الاسلامية ، مكتبته الخاصة في حياته الى الجامعة الامريكية بالقاهرة التي أفردت لها جناحا خاصا هو اول المترددين عليه في شيخوخته النشـطة التي نيفت على التسعين ، وهو ادابهم على مراجعة مفرداتها واستخراج كنوزها . كما ان الصحفي القديم قرياقص ميخائيل الذي عاش في لندن نحو خمسين عاما قد اشـتريت مكتبتـه الخاصـة عن مصر وافريقيا بامر من وزير المعارف الدكتور طه حسين واودعت دار الكتب . اما مذكراته واوراقـه الشخصية التي مات عنها في لندن عام ١٩٥٦ فقد عبثت بها عوامل الضياع لانقطاع ورثته .

وقرياقص ميخائيل يستحق وقفة قصيرة . فقـد سافر هذا الشاب الى لندن في اوائل هذا القرن واعتمدته الصحف المصرية مراسلا لها « كالاهرام » و « المقطم » وما اليهما . وكان بجده ودابه وشخصيته المحببة قد اكتسب صداقة الزعماء واعضاء مجلسي النواب والاعيان (اللوردات) في انجلترا ، مما جعله حلقة اتصال بين وفود المفاوضـة المصرية والساسة البريطانيين . وكان يعشق بـلاده مصر وقارته افريقية ، فعكف على انشاء مكتبة خـاصة تقتصر على هذين الموضوعين . فاذا اشترى كتابا عن مصر ، فتح صفحة المراجع ، وطاف بالمكتبات بحثا عن كل كتـاب منها . فاذا اعياه ذلك ، نشر اعلانات مأجورة في الصحف يطلب فيها شراء كتاب صادر في سنة ١٨٠٠ أو مجلـة طبعت في دربـان بجنوب افريقية عام ١٨٢٠ . وكـانت تأتيه ردود على اعلاناته من استراليا او كينيا ، فيبادر الى شراء الكتاب المطلوب او المجلة المنشودة بأي ثمن . حتـى صارت لديه مع الوقت مكتبة نادرة ، من جملة محتوياتها مذكرات أحمد عرابي باشا بخط يده ومذكرات « برودلي » وهو المحامي الانكليزي الذي ترافع عن عرابي باشا . وقد وضع هذه المذكرات في خزانة استأجرها في البنك وقام بالتأمين عليها حفاظا عليها من الضياع . وقد ادرك طـه حسين ـ وهـو من هـو ـ قيمة هذه المكتبة الخاصة ، فاشتراها وهو وزير خشية ان تقع في ايد أخرى .

على انه قد جد في موضوع المكتبات الخاصة اعتبار جديد اقلق جمهرة الادباء وجعلهم ينظرون الـى المكتبـة نظرتهم الى هم مفزع هم بسبيل تركه لذويهم . فبعيـد وفاة احمد لطفي السيد باشا ، طرق باب أسرتـه زائـر غريب جاء لكي يحصر تركة الفقيد . وقد تبين هذا الزائر ان اكبر عنصر في تركة لطفي السيد هو مكتبته الثمينة . فشمر عن ساعديه ، واخذ يغالي في تقدير ثمنهـا وفـي حساب ما يستحق عنها من مكوس ضريبية حتى فزعـت اسرة لطفي باشا . وما كان منها الا ان رغبت في التخلص من المكتبة فورا ، وذلك باهدائها الى الاقليم الذي ولـد فيه لطفي السيد (قرية برقين) . ولم تكن أجهزة الاقليم مهيأة لاستقبال هذه الهدية ألتي ملأت عشرات من ضخام الصناديق ، ولا كانت لديها قاعة لوضعها فيها ، فخزنتها في سراديب ودهاليز ، وما زالت ترقد في صناديقها الى هـذا اليـوم .

اما مكتبة العقاد ، وهي اضخم مكتبة خاصة منوعـة الموضوعات حتى لقد مـلأت الكتب شـقتين كاملتـين ، وانتشرت في المطبخ والشرفات وفي غرف النوم وفـوق الثلاجة ، فقد عرف الخبراء بدورهم طريقها ، وجـاءوا يقدرون اثمانها ، فتضخمت الارقام وكثرت فيها الاصفار التي هي على اليمين لا على اليسار (كما يقـول صديقنـا الاديب الشاعر المهجري عبد اللطيف الخشن) ، وبـادر الورثة باجراء مفاوضات عسى أن تبقى مكتبـة العقـاد متحفا في بيته التاريخي الذي أقام فيه اربعين سـنة ، او ان تنقل الى اسوان مـسقط راسه لتكون مصدر اشـعاع علمي في هذه المدينة . ولا ادري علام انتهت هذه الحكاية، وان كان قد جد فيها اعتبار جديد ، هـو أن صاحـب العمارة ـ وهو اديب كبير ! ـ انذر ورثة العقاد باخلائها لرغبته في هدمها ! وبدات قضية جديـدة لا ادري مـن مراحلهـا شـيئا .

ولا احسبني الممت بموضوع المكتبات الخاصة ، فهو عريض رحيب . وانما حصرت نفسي في نطاق « الانية » تمثلا بالاستاذين الكبيرين شفيق جبري وظافر القاسمي ، وهما في القمة وانا في السفح منبطح .

طرابلس ـ ليبيا

وديع فلسطين

همسة البعث

فؤاد الخشن

الشويفات ـ لبنان



تقول وفوق الشفاه ارتجاف التمني
ورف القبـــل
وفي الناظرين التماع شفيف
يبل بفيض المقل ، :
ـ « حرام تعاف الغزل
فشعرك هذا الدفيء المعطر ، شعر يضم !
بليل يوشوش فيه النخيل ،
ويهـوى النسـم ! »

ـ مثيرة هذي الحروف الندية بعد الهجوع
يطيب لآدم هذا الرجوع
لجنــة امســه
ولامرىء قيس دهته هموم الكبار
ايــاب لنفســه !
ولكــن امــر
تغمغم فيه جمار الدماء
وتصرخ هـامـه
لراس القتيـل :
« الى الثأر » ينسي عبير النساء
ويمنـع خمـر !
أبعد الفجيعة ، بعد اهتزاز الصور
لفيث أصاب مرايا الغبار
نغني لوجـه القمـر
ونرقص فوق القبور الرطيبة
وفي الافق تبدو لعين فتاة اليمامة
غصون تسير ... !
وعبر الظـلام
دبيب يـرج ضلوع التراب
بـاذن « حـزام » !

لعلـي اذا عـاد حلواً منـير ،
كما كان يبدو جبين البطل
وعادت بلادي ارض الشمل
وعاد صغاري كسرب السنونو
يدرزر حـرا أغاني الحبور ،
اعود اغني لاحلى حبيبـه
تعيش بفردوس نفسي الصغير
لعل دخاني يعود يعطر ثوبا شهي الرفيف
وتخضر خيمـه
بتـل هنالك جـار السحاب
وتحلو لهدبي وهدبك رحله
على قطن غيمـه
تمد بساطا يهدهد فوق الرياح
لضم مذيب يتـاح
ونشـوة قبلـه !



الدكتور محمد رجب البيومي

التجديد الشعري بين مطران وشكري

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

* * *

حين اشرف صديقي الكاتب الكبير الاستاذ نقولا يوسف على تحقيق ديوان الشاعر العظيم الاستاذ عبد الرحمن شكري ، تفضل فدعاني الى كتابة مقدمة ادبية موجزة للديوان ، فلبيت طلبه معتقدا ان تقديم هذا الشاعر المجدد لا ينهض به قلم كاتب محدود مثلي ، وكان مما يهون الامر بعض الشيء ان الاستاذ نقولا يوسف حرص على ان يسجل في صفحات الديوان مقدمات الشاعر نفسه مع ما كتبه العقاد عنه ، فاذا قصر مثلي عن ملء المكان ففي مقدمات شكري والعقاد ونقولا ما يرضي القراء ، وكنت قد اشرت فيما قلت اشارة موجزة الى اثر الشاعر الكبير خليل مطران في ميدان التجديد الشعري دون ان اقصد الى تفضيل وترجيح بين شاعرين كبيرين يحتل كلاهما مكانه اللامع في سماء التجديد الادبي !

ولكن احد القراء الافاضل طاب له أن ينتقص ما اوجزته في المقدمة ، مدعيا ان القول في شكري ومطران لا يتيسر على هذا النحو الطائر ، فخطر لي ان اتناول هذا الموضوع ثانية ببعض التحليل عالما ان رسالة شكري ومطران في التجديد الشعري كانت وما زالت موضع خلاف واشتباه لدى الكثيرين ، ونحن حين نوازن بين الشاعرين الكبيرين في مضمار التجديد والبعث ، نقع في حيرة غامضة ، فمطران في منطق التاريخ رائد اول تقدم الى الباب الموصد ، واخذ يدقه دقا قويا متصلا حتى انفرج مصراعاه على يديه ، وتدفق من خلفهما النور المتوهج فغمر الابهاء والحجرات واستضاءت به عيون ، وقلوب !! ولكن عبد الرحمن شكري يؤكد في صرامة مصممة انه لم يهتد بمطران في مذهب ، بل اخذ يطرق الباب من ناحية خاصة ، حتى انفرج المصراع بجهده الدائب ونشاطه الملحاح !!

وتلك قضية هامة تحتل جانبا كبيرا من التفكير الشائك الحائر ، اذ انها قضية الريادة والقيادة ، وما زال التنازع على الزعامة في عوالم الادب يثير بين المؤيدين والمعارضين نقاشا وعراكا لا يهدآن ، ولا ازعم اني سأصل الى الراي الفاصل فيما اتصدى له بل احاول هنا ان اسطر ما ارتئيه فقد يتضمن بعض ما يفيد .

ونحن اذا سألنا التاريخ الزمني وحده في هذه القضية نجده يؤيد الخليل ويؤازره ، اذ سبق صاحبه الى تسجيل شعره الجديد في الصحف وخرج على الناس باتجاهه الخاص قبل ان يظهر شعر شكري بسنوات ، واذا كان الديوان الاول لمطران قد ظهر في سنة ١٩٠٨ والديوان الاول لشكري قد ظهر سنة ١٩٠٩ فان ذلك لا يعني ان الشاعرين من ناحية الزمان متقاربان ! اذ من المعلوم ان الخليل قد نشر اكثر ديوانه قبل ذلك متفرقا يسيل في انهار الصحف وجداول المجلات ، واذا كان شكري قد نشر كذلك بعض شعره في الصحف قبل ديوانه فلا يدل ذلك على انه سبق الخليل في تجديده وانما كان حينئذ في راي القراء ، شاعرا ناشئا ، ينمو ويترعرع ولم تكن له مكانة الخليل ومنزلته سنا وانتاجا ، مما يجزم بتقليد الصغير للكبير ومسايرته !

ولن يمنعنا تأييدنا لزعامة الخليل من ان نلخص ادلة شكري التي ذكرها بمجلة الرسالة (١٧ ابريل سنة ١٩٣٩) ليعلن بها عدم تأثره بمطران وهي مما تضيء جانبا هاما من قضية ذات التباس !! ولعلها تنحصر في هذه النقاط :

١ ـ اطلاع الاستاذ شكري على الادب العربي والاوروبي في سن مبكرة بالمدارس الابتدائية والثانوية .

٢ ـ كانت ثقافة شكري الاولى انجليزية !! مع ان ثقافة مطران الاولى فرنسية .

٣ ـ انه اطلع على الادب الفرنسي مترجما الى الانجليزية لا كما ظهر اثره في شعر مطران .

٤ ـ اكثر شعر شكري ونثره يغلب عليهما التحليل النفسي او السخر ، او التفكير في مذاهب الادب الاوروبية .. ولا كذلك شعر الخليل .

٥ ـ لم يطلع شكري على ديوان الخليل الا بعد نشر جزء من ديوانه على الاقل ، كما انه لم يطلع منه على احسنه وافخمه بل على ما نظم لمداعبات الانسات السوريات وغيره ، مما يشبه شعر الحفلات والمناسبات !!

٦ ـ لم يقابل شكري الخليل غير ثلاث مرات فقط

ولم يحاول في مرة منها أن يجعل شكري تلميذه !!

هذه أدلة شكري ملخصة مركزة ، ونعلن انه كان صادقا بينه وبين نفسه في سردها فلم يعمد الى تزييف مغرض ليثبت استقلاله الفني ، ولكن صدقه النفسي لا يمنع ان يكون محل نظر لدى غيره ، فقد لا يدرك الاديب بعض منابع تكوينه حين يطغى عليها غيرها من المنابع المختلفة ، ومهمة المؤرخ الناقد حينئذ هي الاهتداء الى كل عنصر بارز او مستتر من عناصر التكوين سواء فطن اليه صاحبه أم لم يفطن اليه ، ونحن لا ننكر أن الرجل قد اطلع على الاداب العربية والانجليزية في سن مبكرة ! ولا ان ثقافته الاولى انجليزية لا فرنسية ولا انه لم يقابل الخليل غير ثلاث مرات !! ولكننا نتعلق بشيء هام هو عدم اطلاع شكري على شعر الخليل في نشأته الاولى ، اذ ان ناشئة الادب وهواته يحرصون حرصا زائدا على قراءة ما يدور حول الادب وما يدخل في نطاقه من شعر ونقد !

فاذا كان الاستاذ شكري قد عشق الادب في سن مبكرة ، فهو مضطر الى قراءة ما يصدره الادباء والشعراء في الصحف ، ولن يعقل في منطق احد ان يغمض شاعر يثقف نفسه عينيه عن شيء يتصل بفنه وموهبته !! فلا بد انه قرأ لشوقي وحافظ ومطران ! واذا كان مطران قد انفرد لهذا العهد دون صاحبيه بالتجديد في شعره ! فتجديده هذا ليس من الخفاء الى حد يتجاهله هواة الادب وعارفوه ! ولعل الاستاذ شكري قد قرأ شعر مطران الشاب ، ورآه دون ما يامل ويرجو ، بعد اطلاعه على الشعر الانجليزي ، فتوهم انه لم يتأثر به ، مع انه بلا شك ــ كأديب شاعر ، قد لاحظ الفوارق الواضحة بين مطران وحافظ مثلا وهذه الملاحظة وحدها ذات تأثير موجه بين شعر الخليل وصاحبيه !!

واذا لم يحقق مطران المثل الاعلى للشعر في راي شكري فقد حاول ان يسير نحوه وان يتزعم مدرسة تحاول ان تتجه مخلصة اليه !! وتلك منة جليلة لمطران ، ونحن في هذا المقال ، لا نريد ان نزعم ان شكري قد قلد الخليل وحاكاه في اكثر اتجاهه ! فهذا ما لا يؤيده انتاج الشاعرين الكبيرين ، وانما نؤكد سبق مطران في التجديد! فهو الشاعر الابتداعي الاول في العصر الحديث ! وقد استحدث في الادب العربي كما يقول الدكتور اسماعيل ادهم (الرسالة ٢٢ مايو سنة ١٩٣٩) اسلوبا جديدا في النظم « يقوم على أساس قول الشعر باعتبار وحدة الشعور واطراد الخواطر وتسلسل المشاعر واتساق المعنى » !

هذا الاسلوب الكلي قد آمن به واعتنقه دعاة المذاهب الجديدة في الشعر الحديث !! وشكري العظيم في مقدمتهم كما تنطق بذلك قصائده الجياد ، وقد ذكر الاستاذ عبد الرحمن شكري فارقا هاما بينه وبين مطران حين قال عن نفسه « ان كثيرا من شعري ونثري يغلب عليهما التحليل النفسي أو السخر أو التفكير في مذاهب الادب الاوربية : الانجليزية والفرنسية والالمانية . ولم ار ولا اظن ان اكثر القراء رأوا ذلك في شعر مطران » .

وهذا كلام صحيح لا غبار عليه اذ ان الاستاذ شكري قد عكف على تحليل النفس البشرية تحليلا يفضح نقائصها المتباينة ، ويكشف جوانب هامة من اسرارها الغامضة ، وقد سلط تفكيره العميق على اكتناه النوازع ، واستشفاف الخواطر ، فأدرك الطبائع الفطرية في النفوس وازال الاغشية عن العيون فلمح الالم في التبسم والعداوة في الصداقة ، وفسر السلوك الانساني تفسيرا مدهشا عجيبا لا يتأتى لغير مجرب فاحص يدخر تجاربه القاسية لينتفع بها في تعليل الظواهر وتبرير البواعث !!

واعتقد ان علماء النفس يجدون ذخيرة لا تنفد ، ومعينا لا ينضب في انتاج شكري النفسي وتحليله العجيب ، وذلك ما لم يتوغل فيه مطران ، فقد صرفه عن التعمق الدقيق ما برع فيه من وصف ساحر لمظاهر الطبيعة ، والجنوح مع الخيال في آفاقه الوضيئة ، واهتمام مطران بدراسة السلوك الانساني لا يتعدى الظواهر المشاهدة الملموسة دون ان يتعمق في تفسير النوازع واكتناه السرائر ! وحسنا فعل فقد سلم شعره من جفاف المنطق وشحوبه وترقرق به نمير شفاف ذو رونق ورواء !!

واذا قرأت قصيدة الملك الثائر لشكري مع قصيدة الجنين الشهيد لمطران فسيتضح لك مذهب الشاعرين ، فشكري في حديثه عن النفس الانسانية دقيق يتجه الى سبر الاغوار واستطلاع الاعماق فيصور نزعتين مشهودتين من نوازع النفس ، الاولى نزعة السخط من الشرور والالام البشرية ، والثانية نزعة تهوين المرارة والاستهتار بالالم ، وواضح « أن تناقض النزعتين يحتاج الى منطق قاهر في العلاج والتوجيه مما لا يقدر عليه غير باقعة متمرس ! اما مطران فيتحدث في (الجنين الشهيد) عن النفس البشرية حديث المصور اللاقط الذي يراعي استكمال الصورة وتناسب الاضواء والظلال !! ويقف عند الخلجات المؤثرة وقفات معبرة تبرز تأثيرها . ولكنها لا تتغلغل تغلغلا دقيقا فتستشف الدوافع وتفحص العلل وتبرر التناقض ! !

واذا تركنا النفس البشرية الى شعر الطبيعة عند الرجلين فلا بد أن نلاحظ وحدة الوجود وحيوية الكائنات وتعقل الجمادات واختلاق الدوافع في شعر شكري ! نلاحظ ذلك ملاحظة العقل المدبر الذي يقيس الجماد بالانسان فيفترض له احساسا وشعورا ينسيان ما نعهده من تحجره وتصلبه ! اما مطران فمع اندماجه الزائد مع الطبيعة وخلع مظاهر الحيوية على جمادها الساكن ، فلا يكاد ينسيك حقيقتها الثابتة مهما دفعها بالحركة واجاشها بالحياة !! فاذا تكلم الطير وناح النهر وصدح الزهر في شعر مطران فانه لا ينسيك رغم حيويته واندماجه، حقيقته التي جبله الله عليها الا لحظات محدودة تمر بخاطرك

يومـان

سـور لـه بـاب أقامتـه الليـالي بيننـا
شتان مـا يومـي بظـاهره ويـومي بـاطنـا

في ظـاهر السـور انعتاق الروح من اسر القيود
ونهارهـا ثم انطـلاق نحـو آفـاق السـعود

فالفجر يبسم عن اماني الكـون في اليوم الوليد
شـفتين حمراويـن تفتـران عـن در نضيـد

والصـبح يشرق نـوره عبر الوهـاد على الذرى
جنيـة شـقراء تنفض عـن نواظرهـا الكـرى

والظهر تسـطع شـمسه غـراء ناصعـة الجبين
في دفئهـا ترتـاح افئـدة الى بـرد اليقين

والروح ترتـع في مباهجها متى جـاء الاصيـل
فاذا انـى ان تستريح اوت الـى ظـل ظليـل

واذا اختفت شمسالغروب هنالافي بحرالسكينه
كشف الرضا الروح عن اسراره الكبرى الدفينه

والان خلـف السـور ايـامي عـذاب والتيـاع

ما بين جنبي الفراغ وكـل مـا حـولي ضيـاع

الفجر جـرح الكون ينكـا كل يـوم من جديـد
ودماه في اقصى المشارق تصبغ الافـق البعيد

والصبح جاسوس يفتش عن عيـوب الكائنـات
ويمزق الاسـتار عـن اوضـار كانت خافيـات

ويلاه من وهـج الظهـيرة حين يلفحني لظـاه
فاروح او اغـدو بـلا ظل كمـن فقـد الحيـاه

وتـدب خطـوات الاصيـل بطيئة فوق الدروب
ومع امتداد ظلاله تطفـو الكـآبة في القلـوب

والشمس في افق المغارب وهي في النزع الاخير
مرآة احزان ينوء بحملهـا القلـب الكسـير

وتمـر ايـامي وراء السـور هـائمة حيـارى
في كل يـوم تستجد الـروح آلامـا عـذارى

الجزائر جمال مرسي بدر

كشريط سينمائي سريع .. ولكنها لا تنفصل عن جمودها انفصالا متقطعا كما تظهر في شعر عبد الرحمن شكري .

ومن هنا كان سبق شكري الى الاستشفاف البصير، وادراك ما خفي من الاحاسيس والمتناقضات ادراكا يعتبر به صاحب فتح كبير في الشعر والادب ، وحسبه ان كان بشعره عالم نفس ذاتي يجمع آراءه من تاملاته الشخصية، وخبراتـه التجريبيـة ، وهو في هذا المجـال النفسـي رائـد كبير دون نـزاع ، واذا كـانت مدرسـة مطران قد وجدت كثيرا من التلاميذ الافذاذ ، فان مدرسة شكري قد انتقل تاثيرها الى افراد معدودين !! وليسـت المسالة في الشعر ديمقراطية تكسـب رئاسـتها بكثرة الاصوات ، ولكنها اذواق ومشارب وقد تكون الفاكهـة الدسمة غير معشوقة لبعض الحلوق ! ولكنهـا لا تفقـد عنصرها الدسم وتاثيرها المفيد !

هذا ومن العبث في صدد الحديث عـن المدارس الشعرية ان نفترض في شعرائنا الشباب تاثرهم بانسـان معين دون سواه ! فاذا كنا نعد ناجي وشيبوب وابا شادي من مدرسة مطران مثلا ، فليس معنى ذلك انهم لم يعرفوا شعر شكري او يتاثروا به ! فهذا ما لا يسـوغـه عقل ، اذ المفروض انهم كشعراء ، قد قرأوا لشكري وتأثـروا بـه لا شعوريا ، او شعوريا ولكنهم جنحوا في الظـاهر الـى طريقة غيره ، وبقيت في مشاعرهم الدفينة بوارق ولوامع من أثر شكري جعلت تمتزج وتختلط بغيرها من اللوامـع فتكون عنصرا جديدا من عناصر التجديد والتلوين !! وهنا تخرج الصورة الجديدة جامعة شاملة ولكنها تشـير في اكثر ملامحها الى لون مشتهر تنتسب في اكثر وجوههـا اليه ، وليست متحدة معه اتحادا موافقا ، ومن هنا اثـر شكري في مدرسة مطران العظيم ومن هنا ايضا اثر مطران في مدرسةالديوان التي كان شكري احد قادتها البارزين .

الفيوم ــ دار المعلمات **محمد رجب البيومي**

خليل السكاكيني كاتباً

بمناسبة مرور ١٥ عاما على وفاته

بقلم حمودة زلوم

* * *

لن اقول ان خليل السكاكيني (وحيد زمانه ، ونادر عصره واوانه) فنحن واجدون كثيرين من الاعلام العظام ، الذين لا نزال نفخر بهم ونغترف من علمهم وادبهم ، ونسير على هداهم امثال الدكتور طه حسين ، والعقاد ، وسلامة موسى ، واحمد امين وامين الريحاني والدكتور منصور فهمي ، والمازني ، وشكيب ارسلان ، والمنفلوطي واستاذ الجيل احمد لطفي السيد وغيرهم ، ومع ذلك فقد تألق اسم السكاكيني بين تلك الاسماء الساطعة ، واستطاع بما وهب من قلم سيال وفكر حر اصيل ، ان يجد له مكانا بينهم ، ومن هنا تأتي اهمية الرجل !

والسكاكيني من رواد المدرسة التجديدية ، التي ثارت على الاساليب القديمة ، المتمدة على ادب اللفظ ، والتكرار الممل ، فهو من اولئك الذين يرون (ان السجع وسائر انواع البديع اشبه بالوشم عند الشعوب البدائية) ، ودعا الى التجديد في الاسلوب والمضمون ، والتطور مع روح العصر ، فكان يريد من الكتاب ان يكتبوا بلغة العصر واجرهم على الله .

لذا فقارىء السكاكيني كما يقرر الدكتور ناصر الدين الاسد « يلمح صدق دعواه ، فاسلوبه سلس سهل ، مشرق العبارة ، ناصع البيان ، مسلسل التفكير ، قريبا الى الفهم ، خفيفا على النفس ليسره ووضوحه ، فهو يخاطب بعقله ، عقول قارئيه وسامعيه في موضوعات ذهنية فيحسن التفكير والتعبير ، ويبلغ غاية في التواضع والافهام » .

والسكاكيني من الذين ينادون بان الادب للحياة ، وان الادب رسالة سامية ، لا الادب للادب ، وان يقبع الاديب في برج عاجي بعيدا عن المجتمع ومجريات حياته ومشكلاته فاذا بادبه ، يغلب عليه طابع التوعية والتوجيه والنقد الهادف ، وحب الانسانية والعمل لما فيه خيرها وسعادتها .

وكان يؤمن بدور الاديب والادب في انهاض الامم وتقدمها فهو يقول « وللادب تأثير في حياة الامم ، خذ امة ضعيفة ، فبث فيها ادبا قويا ، فانك لا تلبث ان تراها ، وقد تجدد شبابها ، وكبرت نفوسها ، واتسعت آمالها ، واقبلت على الحياة ، كأنك طعمتها بدم جديد ، والامة القوية المملوءة حياة ، اذا اهملت ادبها الراقي ، فانها لا تلبث ان تصير الى الانحلال فالفناء » .

اما الاسباب التي جعلت من اسلوبه ، اسلوب العصر ، فمنها اشتغاله في التعليم مدة طويلة من الزمن ، والمعروف ان المعلم الناجح ، من تتوفر فيه القدرة على افهام تلاميذه ، الفكرة التي يريدها ، والنزول الى مستوى الطلاب ، لذا فهو يقول « اني اشتغل في صناعة التعليم من عهد بعيد ، بل لا اعرف نفسي الا معلما فصار من دأبي اذا تكلمت او كتبت ان اكون مفهوما » .

ولما وصلت الكتابة ، في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، كما يقول الدكتور الاسد ، الى مدى كبير من التكلف والتصنع ، وتزويق الالفاظ ، وعبارات محفوظة ، او منقولة او اكثار مفرط في استخدام المترادفات والمحسنات اللفظية ، فضلا عن تفاهة المعاني وغثاثة الافكار ، فاذا نظرنا الى حماسة السكاكيني في دعوته الى هجر ذلك الاسلوب القديم ، واتباع الحديث ، على ضوء ما كان شائعا في عصره ، من اساليب الكتابة ، كان لا بد لنا أن نقدر دعوته حقا والخير الكبير الذي يعود على الكتابة .

وامر ثان جعل اسلوبه واضحا سهلا ، هو ميله في حياته عامة الى اليسر والوضوح وكرهه التكلف والتعقيد ، وثانيها ثقافته الواسعة ، ومصاحبته لزعماء التجديد في الادب العربي امثال ، طه حسين ومنصور فهمي ، ومحمود عزمي ، وسلامة موسى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق .

ولكي تزيد الصورة وضوحا فها نحن نسوق للقارىء نماذج من نثره ، في بعض الفنون الادبية التي عالجها واهمها ، المقالة ، والرسالة ، والخطبة ، والبحث .

ففي الفترة التي قضاها السكاكيني في مصر ، مديرا للمدرسة العبيدية ، سرق بيته في القدس ، فكتب كلمة ، نشرت في المقتطف بتاريخ ١ - ٥ - ١٩٢٢ ، وفيها نلمح روح السكاكيني المرحة واسلوبه المشرق « ايها اللصوص المحترمون !

بلغني والعهدة على الراوي ، انكم طرقتم بيت هذا العاجز ، بل بيتكم الاصفر في القدس في ليلة ظلماء ، ذات اندية ، فسرقتموه ، فان صح ذلك ، فاني عاتب وشاكر .

اعتب لانكم طرقتم البيت ونحن غائبون في مصر ، كأني بكم ، قد اعتقدتم اننا ادنياء الحرص لا يخرج من حظائرنا خير ، فلو سئلنا التراب ، لاوشكنا اذا قيل هاتوا ان نمل ونمنع - كما قال الشاعر - فخفتم اذا زرتمونا ونحن فيه ، ان تأخذنا الحفظة ، فنبادر الى السلاح ، ونثنيكم على وجوهكم ، تتعثرون ، في أذيال الخيبة ، هذا اذا لم نظفر بكم فنوثقكم ونسقكم كالاسارى الى حيث يقتص منكم ، عما اقترفتم بالليل لا بالنهار .

اذا كان هذا اعتقادكم فهو خطأ ، بل اهانة لا نقبلها

منكم ، لو اخرتم زيارتكم الى ان نرجع لفتحنا لكم الابواب على مداها ، بدلا من ان تكسروها ، وقدمنا لكم التليد والطريف والثقيل والخفيف واعتذرنا اننا مقصرون .

لو حصل لي الشرف ، ان اكون لصا ، لما دخلت بيتا واهله غائبون ، ان تسرقوا البيوت رغم انوف اصحابها وكلاهما ذلك اشرف لكم ان كنتم تدرون . . . »

وزيادة في ايضاح معالم الصورة، ليتعرف القارىء ، الى متانة الاسلوب ، وقوة العرض ، ودقة الكاتب الالمعي ، نسوق هذا النموذج من نثره « من هم الابطال ؟ هم الذين يجددون شباب هذا العالم ، حين يستولي عليه الهرم ، وينفخون فيه روح البطولة ، حين يهي اليأس ، وتتقاصر الهمم ، واسعد الامم حظا واقدرهن على الحياة ، هي الامة التي تعم روح البطولة بين ابنائها ، فما تلقى احدا منهم الا لقيت بطلهم ولا يموت بطل ، الا قام بطل قؤول لما قال الكرام فعول ، واسوأ الامم واعجزهن عن الحياة ، هي الامة التي تتعاقب عليها الاجيال ولا يظهر فيها بطل ، واذا ظهر فيها بطل ، لم يفهمه احد ، كأنه جاء في غير وقته ، تلك امة تتدرج من سيء الى اسوأ الى ان تتدرج في اكفانها ، او ان يتداركها الله ببطل منها ، او من غيرها ، ويلهمها الايمان به ، فيقيلها من عثرتها ويعود بها الى الحياة ، وقد يحيي البطل الواحد امة باسرها » .

وفي صفحة « احسن ما قرات » من مجلة الامانة القاهرية العدد الثاني ، نحن واجدون كلمة للسكاكيني ، ولما عدنا الى ادب الرجل ، وجدنا الكلمة ماخوذة من كلمة طويلة ، كان قد القاها في حفل اقيم لاحياء ذكرى امين الريحاني ، جاء فيها « لا تكون الفلسفة الا بامرين الاول ان تكون مزاجا ، وبعبارة اخرى ان يكون الفيلسوف مطبوعا لا مصنوعا ، وان يتلقى فلسفته من الحياة لا من الكتب والجامعات ، الذين يقراون كتب الفلسفة في الجامعات كثيرون ، ولكن كم تصنع الكتب ، وكم تخرج الجامعات من الفلاسفة ؟ قد تمر الاجيال تلو الاجيال قبل ان نرى فيلسوفا .

نعم ان الفلسفة مزاج ، كما ان الشعر مزاج ، وكما ان الابوة مزاج ، وكما ان الامومة مزاج ، الى غير ذلك ، اذا لم يكن للمرء مزاج فلسفي فلن يكون فيلسوفا ولو درس كل الفلسفات ، كما اذا لم يكن له مزاج شعري ، فلن يكون شاعرا ولو ملأ الدنيا شعرا ، واذا لم يكن له مزاج الابوة فلن يكون ابا ولو ملأ الدنيا اولادا ،واذا لم يكن للمراة مزاج الامومة فلن تكون اما ولو رزقت البنات والبنين ، بل قد يكون المرء فيلسوفا ولو كان اميا ، وقد يكون شاعرا ولو لم يعالج النظم ، وقد يكون المرء ابا وقد تكون المراة اما ولو لم يتزوجا .

الثاني : ان تكون رسالة ، ليس من الضروري ان تكون للفيلسوف فلسفة جديدة ولعل الانسانية ، لا تحتاج الى فلسفة جديدة ، فان عندها من الفلسفات ما يكفيها ولكنها في حاجة الى رسالة . . . »

وكما عالج السكاكيني المقالة والخطبة ، فقد عالج الرسالة، والرسائل التي كتبها كثيرة ، منها الى اصدقائه ، ومنها الى استاذه نخلة زريق ، ومنها الى تلاميذه ، ومنها الى زوجته ، ولكن اكثرها رسائله الى ولده « سري » يوم كان « سري » يتلقى تعليمه في امريكا ، وفيها نلمح حبه لولده وحرصه على تربيته تربية استقلالية ، لينمي في نفسه الشعور بالمسؤولية ، وهذا نموذج من تلك الرسائل « . . . لم يكن يخطر هذا الفراق الطويل في بالي ، كنت احب ان نعيش معا ، الى ان يحين اجلي ، كنت احب ان ارقب تطوراتك بعيني ، وان اسمع آراءك وخواطرك واحاديثك باذني ، ولكني خفت ان كنت قريبا مني ان اتدخل كثيرا في شئونك ، خفت ان احول دون اعتمادك على نفسك ، فآثرت برغمي ان تطير عني ، الى افق بعيد ، لاكفيك مؤونة هذا التدخل ، ولاتركك لنفسك لتتهيأ لك الفرص ، لان تنظر بعينيك لا بعيني ، وتسمع باذنيك لا باذني، وتلمس بيدك لا بيدي ، وتفكر بدماغك لا بدماغي، وتعمل بارادتك لا بارادتي . اذا لم يعتمد الفتى على نفسه فقد يبلغ مبالغ الرجال ، وهو لا يزال في عداد الاطفال ، لست اجهل أن في الامر خطرا اسأل الله ان يقيك منه ، ولكن لا سبيل الى اكتساب الرجولة ، الا هذا السبيل ، ان في اقتحام الاخطار او في محاولة اجتناب الوقوع فيها ، او الخروج منها ، بعد الوقوع ، دروسا ثمينة ، وافيد الدروس واوقعها في النفس ، هي تلك الدروس التي يدفع المرء ثمنها غاليا لا تلك التي تجيء عفوا » .

ولقد تعددت الاراء النقدية في اسلوب السكاكيني ، ولكنها اجتمعت في تقديره والثناء عليه ، فالناقد الاديب احمد عبد الغفار ، وصفه بقوله « ومما تمتاز به كتاباته ــ السكاكيني ــ الدقة بالتعبير والاناقة باللفظ ، وتمكن وثبات في التفكير » وفي مكان آخر يضيف قائلا « فان قراءة السكاكيني من المتع الحقيقية ، لمن يتذوقون الاسلوب العربي الصحيح ، والتفكير العميق المتامل ، الذي تنبثق علامات دلالة عليه ، في تعبيرات رائعة » ويستطرد الاستاذ احمد عبد الغفار فيقول « ومما يمتاز به اسلوب السكاكيني ، التفكير بالحياة ، وببعض الناس ، تجتمع في ادبه، الفكاهة الى السخرية المرة ، الى التفكير العميق» اما الاديب عيسى الناعوري فيصف ادب السكاكيني بانه ادب واقعي ، يستمد مواضيعه من الحياة والمجتمع البشري ، ويعالج القضايا الانسانية والاخلاقية والعقائدية ، ويناضل لتحسين الحياة واوضاعها ، الرقي بحياة البشرية ، ولم يكن قط ادب ترف ذهني ينشد الفن المجرد .

وللدكتور ناصر الدين الاسد ، راي اصيل ــ في راينا ــ في وصف اسلوب الرجل الذي يشتمل على خصائص تميزه عن غيره ، وهذه الخصائص اجملها فيما

الصدى الهاوي

الى المترنمة بقصيد شاعرها المنتظرة قدوم الربيع

وترنمـــي …
وخذي هناك مـن ضياء الانجم
قلبي .. وقلبك .. والهوى ..
لحن الجمال المنعم
وعلى الربـى
يا طيف وجدي الاعظم ،
الحـان قيثار ترن على حفاف الجدول
وعبير اشواق تفـوح بطيب زهر اجمـل
وسواجع الناي الطروب وهمسة لم تكمل
وانا … وانت .. وحبنا ..
وقداسة في موردي ،
تغفو على حلم الربيع وعيننا في الابعد
وتداعب الامل الوريق بحرقة القلب الصدي
يا من وهبتك اضلعي ..
ورشفت من نبع الحياة ولم اع
وغدوت آهات ترف على بقايا الادمع
ما كل لحن قد ترقرق واستبد بمضجعي
الا بوارق من صدى يهوى الهوى في اربعي
وحديث افئدة لهـا وقع الرباب بمسمعي !
واذا بيـــا …
ظمآن يحرقني الهوى ، وعلى فؤادي المنشد
وجد يدغدغ مهجتي .. ويفوح شوقاً بالغـد
ويظل يهمس بالدجى :
(اهواك يا املي الندي !)

الكويت شفيق بلعاوي

يلي : استخدام الالفاظ التي تدل على العصر والابتعاد عن الالفاظ والتعابير التقليدية المتوارثة ، وتجنـب التكرار والتطويل والمترادفات وتجنب التكلف واستخدام الاسلوب الطبيعـي .

والدكتور منصور فهمي ، راي في اسلوب صديقـه السكاكيني قال « انه كاتب أصيل ، وكتابته تعبير صادق لاحاسيسه وانفعالاته المتنوعة الدافقة ، تتجلى سائغة في اسلوب من السهل الممتنع ، واليسر النقي الخالـي مـن التكلف والصناعة » .

والصحفي الاديب يوسف حنا فقد كتب يقول عنـه « … اما الاديب في السكاكيني فلشد ما كان يتالم فـي الليل وفي النهار ، او في خلوات نفسه ، وفي مجالسـه مع الناس ، وفي الساعات التي يقرا فيها ، وفي الساعات التي ينقطع فيها للتفكير ، وكان الالم الذي يستشـعره السكاكيني هو ما اعتدنا ان نسميه بالالم العبقري » .

وقد انصفه الدكتور منصور فهمي حينما قال « ان السكاكيني اعظم من آثاره ، فادبه الرقيع لم ير الناس فيه الا ومضات لو اسعفه الزمن واعانه على التعبير عن كامل احاسيسه وارائه لبدا عملاقا بين اقزام » .

الزرقاء ـ الاردن حمودة زلوم

« صابر .. بحق الايام السالفة هلا عدت .. نوال .. »

طويت البرقية ، وضعتها في جيبي ، ثم أسرعت الى السيارة . رميت بها حوائجي وانطلقت كالسهم .. شعرت وكان كل براكين الشوق في صدري قد تفجرت .

رحت انهب الارض دون ان التفت الى الاشجار الخضراء التي كانت تقف في وداعي على جانبي الطريق .. انني على موعد مع نوال !

كان موسم الحصاد قد بدا ، فرايت الفلاحين وسط السهول ، يحصدون القمح والشعير بمناجلهم القوية ، والنساء يغمرن خلفهم ، وقد ارتفع صوت احداهن بالغناء الحزين .

وقفت بسيارتي اراقب بصمت جني ثمار الارض الطيبة ، فهاج بي الحنين لرؤية ابي .. اريد ان اراه ، واسمع حكاياته عن الارض ، وعن الناس الطيبين في قريتنا الحنون « قنير » .

سامحك الله يا ابي .. لو تركتني اعيش كما اريد ، لو لم تحاول ارغامي على الزواج من ابنة صديقك لما ابتعدت عن حكاياتك .. كنت اريد ان اسعد بشبابي مع نوال .. تحت رعايتك وفي ظل قلبك الطاهر .

واسرعت من جديد .. كان قلبي يسابق السيارة ، وعيناي تركضان فوق سنابل القمح الذهبية ، وشعور من البهجة يغمر نفسي .. كنت احس وكانني طفل يرقد فوق صدر امه ، ويرضع من ثديها الحليب الطازج .

اطلت بيوت المخيم المتراصة من بعيد .. كانت ترقد فوق ذلك التل باستسلام مهذب ، واشجار من التين والكرمة تتزاحم بينها . وقد انبطحت بيارة برتقال في السهل الذي يمتد بمحاذاة التل الصغير ..

وتحسرت .. لقد تذكرت حينما كنت طفلا شقيا ، فحاولت مرة ان اسرق حبة برتقال من البيارة ، لكن الحارس امسك بي وانا احاول عبور السياج . صفعني على قفاي وصرخ :

ــ اذهب الى بيارة ابيك .

وبكيت يومها .. احسست وكانه يقذف الطوب في وجهي .. انه يعلم اننا لاجئون ، ولا نملك شيئا .

طالعتني اللافتة المنتصبة على جانب الطريق : « مخيم نورشمس . وقوف السيارات اجباري » .

نزلت من السيارة وانطلقت عبر الممرات الضيقة . فطالعني ذلك المزيج الغريب من المنازل والدكاكين والمقاهي والمراحيض وعلب السردين الصدئة !! صدحت رائحة الفلافل الساخنة في انفي ، فاسرعت اكثر .. انها تذكرني بفطوري اليومي ايام الدراسة .

بدا الناس يصافحونني ويبتسمون

نداء الارض

بقلم علي فوده

لي ، ثم يهنئونني بسلامة العودة . والنساء يرددن على مسمعي : « ما شاء الله ، صار شابا » .

دخلت البيت .. كانت امي تساعد ابي في غسل رجليه الملوثتين بالطين ، فراحت تصب الماء فوقهما ، وتدلكهما بيديها الخشنتين .. نظرت اليهما بحب :

ــ « يمه » .

ــ صابر ...

وازدهى الفرح في عينيها ، فقامت بيتلمني الى صدرها الدافئ ، وتبلل وجنتي بدموعها الحنونة . ثم وقف ابي بقامته المديدة وعانقني بحرارة وهو يشكر السماء .

اسرعت اختلي بامي واسألها عن نوال ..

ــ لقد اعتقلوها البارحة ، يقولون بانها فدائية .

ــ فدائية ؟!

كادت الدهشة تعصر من عيني المتسعتين .. نوال ، السنونو الوديعة ، الملاك الرقيق تصبح فدائية ؟! انني لا اكاد اصدق .

ناداني ابي :

ــ « صابر ، تعال يا بني تتغدى » .

جلسنا حول حبات الزيتون و « السلطة » فراح ابي ياكل بشهية ، وامي تحدق في وجهي وكانها تخاف ان اهرب من امامها . وانا كنت افكر بما سمعت .. نوال ، فدائية .

نبهني ابي :

ــ صابر ، لماذا لا تاكل ؟

تنبهت الى العيون الاربعة التي كانت تراقبني بابتهال ، وكانها تصلي الى الله من اجلي ، فتناولت حبة زيتون صفراء قذفتها في فمي ، ثم رحت امضغها دون ان احس بطعمها الذي كان ابي يجيد تذوقه ..

وسالت ابي :

ــ اما زلت تشتغل في بيارة الحاج رافت يا ابي ؟

ــ وماذا افعل غير ذلك ؟!

ــ ولكنه لا يدفع اجرا مناسبا .

ابتسم ابي وكانه يسخر من تفكيري :

ــ اتظن ان اباك يعمل في البيارة من اجل النقود ؟ كلا يا بني .. انه نداء الارض يجري في دمي ، يخلخل عروقي ، يجعلني احس وكانني سيد الدنيا . احب ان افلح الارض فلاحة عميقة ، احب ان اتغلغل في اعماقها ، وارويها بعرقي ، كي تخصب حتى اخر ذرة في بطنها ..

وقام ابي الى قارورة تنعرس

فيها شجرة فلفل . نزع منها قبضة من الطين الرطب ، نظر اليها يتلذذ مثل عاشق ، ثم سحقها في يده ، وترك الذرات تسيل من بين أصابعه الخشنة ، ثم اقترب مني ووضع يده عند انفي :

— الا تشم رائحتها ؟

— انها مثل رائحة الخبز الناضج.

غمر الحنو كل وجهه العجوز ، فتالقت عيناه بالفرح ، ثم صاح مبتهجا :

— انت من صلبي الحقيقي ، ان دمائي تجري حارة في عروقك . لقد ادركتها بسرعة !!

★

ارتديت معطفي ، وسرت مع ابي وسط البيارة . كان الصباح منعشا .. رفرفة العصافير تصدح في اذني بنعومة، الندى يعانق لاعشاب الحرية الخضراء ، اوراق البرتقال والليمون تبدو سعيدة ، والشمس قد بدات بالشروق ..

رايت عشا صغيرا يرقد فوق شجيرة برتقال . اقتربت منه ، فطارت الام ، وصارت تحوم فوق راسي . نظرت داخل العش الدافيء فرايت اربعة افراخ صغيرة تطل من فم العش ، وقد علا جسدها اللحمي زغبا ملونا بالاحمر والاصفر ، فانتعشت .. احسست وكانني فرح مثلها .

فاحت رائحة زكية . سالت ابي عنها ، فابتسم :

— انها رائحة الطين الطازج في الصباح ، حينما تلهبه الشمس بحرارتها . قطعنا البيارة ، ودخلنا في ارض صغيرة محروثة ، فركع ابي على الارض ، وصار يتفرس فيها وكانه يريد النفاذ الى اعماقها . وفجاة ارتسمت الدهشة على وجهه:

— صابر ، صابر ، انها حبلى !

— من هي الحبلى يا ابي ؟!

نظر الي يؤنب جهلي :

— وهل من امراة سواها ؟! انها الارض يا بني .. الام الحنون ، الزوجة الوفية ، والطفلة المدللة . انظر اليها كيف تجود بخيراتها ، فتغمر ابناءها بالعطف والحنو . اقترب هنا وانظر ..

تقدمت من ابي . فرقصت بجانبه على الارض ، فرايت قشرة من التراب الطري تنتفخ الى اعلى وقد بان تحتها نبتة خضراء . ازحت لتراب من فوقها ، فظهرت النبتة يانعة كفرح الطير .

وجاشت عواطف الفلاح في نفس ابي فمسح باصبعه فوق النبتة الصغيرة بحنان ، ثم نظر الي حزينا :

— صابر .. تذكر بان لنا ارضا كهذه ، وتذكر يا بني بان امنيتي الوحيدة هي ان تدفن عظامي تحتها. احس بانني ساظل اسير تلك الارض ما حييت ، واشعر بانها تناديني دائما !!

ورايت دمعة تنحدر فوق الوجه الاسمر العجوز لاول مرة في حياتي.

— ستعود يا ابي . اقسم بطهارة الكلمة الرضيعة انها ستعود .

وانتصبت واقفا والثورة تملا نفسي . ولا ادري لماذا شعرت بتفاهتي لاول مرة وانا اتذكر بان نوال فدائية ، وهي الان في السجن تقاسي !!

★

انطلقت عبر ازقة المخيم الضيقة ، ورائحة قذرة لا تنفك تصادم انفي ، واحساس عميق بالضيق يغمرني .. كنت افكر في نوال الفدائية ...

جلست في المقهى ، وطلبت كوبا من الشاي . احضره صاحب المقهى العجوز ومعه فنجان قهوة لنفسه . جلس بجانبي . اخرج من جيب قميصه علبة السجاير ، فناولني واحدة ثم وضع في فمه واحدة .. كان العجوز مهموما ، وقد بان الحزن على قسمات وجهه الصلبة .

سحب الرجل من سيجارته نفسا عميقا :

— قاتلهم الله ، لا يمضي يوم الا ومعه حادثة دنيئة !

نظرت اليه مستفهما ، فعاد بوضوح :

— الم تسمع بحادث « باسيل اليتيم » ؟!

— مهندس الاشغال ؟

— لقد ترك كل شيء والتحق بـ « فتح » ، وقد احضروا جثته هذا الصباح ورموها امام هذا المقهى ليتعرفوا الى اهله ، ولما تم لهم ذلك نسفوا بيتهم .

— يا الهي !

وانطلقت .. احسست بان « باسيل » يصفعني ، ونوال تبصق في وجهي . شعرت بان الارض تلعنني .. تتهمني بالجبن وعدم الوفاء .

★

سرت عبر الحقول وسط الظلام ، ونسيم الفجر يحمل معه رائحة الثمار . وسمعت خشخشة قريبة فاسرعت اكثر .. اريد ان اضع المتفجرات تحت ذلك الجسر واعود !

وتزحلقت قدماي في الطين ، فتشبثت الارض بي . سحبت قدمي بصعوبة وانا اتلذذ بكلمات ابي : « احس بانني ساظل اسير تلك الارض ما حييت ، واشعر بانها تناديني دائما » .

رايت جنديا اسرائيليا يجلس غير بعيد من الجسر ، فالتصقت بشجرة « جوافا » . احتضنتني الشجرة ، هفهفت اوراقها فوق وجهي ، فاحسست بدفء يغمرني وكانني ارقد تحت جاعد من الصوف . شعرت بانتعاش سرى في كل اوصالي ، فنسيت الخوف وكل شيء .

تسللت مسرعا نحو الجسر ، وضعت الالغام تحته ، ثم استدرت لارجع ، لكنني رايت الحارس يرمي بندقيته جانبا ، ويلف جسده بمعطفه السميك ، ويغط في نوم

قمر تحت الامطار

حبك في هذي الايام
يلفح جسمي كرياح الصحراء ،
في وهج الصيف الساطع ..
يمضي بي عطشا نحو البحر الرائع !

حبك
ينزل في روحي مطرا عند الفجر
يتغلغل في اجفان الازهار
يغفو في احضان الاوراق
يثقل اعناق العشب .

حبك
يرسل في روحي ضوءا اخضر
يؤنس ارجاء الظلمات
يضحك في اجساد الاعمدة المرمر
يتقاطع مع اصوات الجنيات ..
يبقى شمسا ترقد في اعتاب البحر ،
تعطي الموج السابح لون الشوق الزهر

حبك في لحظات
اعطاني فرح الاطفال جميعا
حبك في لحظات
اعطاني حزن الاطفال جميعا

حبك كان بروحي ، ذات نهار ،
قمرا يمشي مرتجفا تحت الامطار !!

حلب — صباح الدين كريدي

عميق . اقتربت منه بحذر ، غرزت سكيني الطويل في جنبه بحقد هائج ، ثم سحبته الى الحقل واسرعت عائدا ..

★

جلست بجانب صاحب المقهى العجوز ، رحت ارشف قهوتي بتلذذ وانا انصت الى « صوت العاصفة » .. كان المذيع ينعي احد الشهداء الذين قتلوا بتهمة انتمائهم لمنظمة « فتح » .

وارتفع صوت المذيع فجأة : « نسفت احدى دورياتنا دبابة كانت تمر فوق احد جسور العدو . كما قتلت احد جنوده . ثم عادت الى قواعدها سالمة . عاشت فلسطين حرة عربية » .

وشعرت بالفخر .. احسست بانني كبير ، كبير ، رايت .. « باسيل » يطل من قبره ويشد على يدي ، ونوال تبتسم لي .

قمت عن المقهى ودمعة الفرح تكاد تفر من عيني .. كنت اريد ان احدث ابي بما جرى ، اريد ان اقرب الوردة التي قطفتها من انفه ليشمها .

ودخلت البيت : فدهشت !

كانت نوال تجلس مع امها وابيها ، وامي تصب الشاي . اقتربت منهم وعيناي تبوحان بزغاريد فرحتي . صافحتني نوال بقوة ..

يا الهي ! لقد تغيرت نوال .. لم تعد تلك الطفلة البريئة ، لم تعد ذلك السنونو الوديع . انها قوية ، صلبة كجذع سنديانة ...

ـ هل اطلقوا سراحك ؟ الحمد لله على السلامة .

ـ لقد اطلقوني ، ولكنني مراقبة في كل حركاتي .

سألتها عيناي بلهفة :

ـ ولكن ، اصحيح ما يقولون ؟! .

اسبلت عينيها الواسعتين ، وهزت راسها موافقة ، ثم قالت بفرح :

ـ هل سمعت بحادث البارحة ؟ لقد جن جنونهم انهم يتشبثون بالهواء ليعرفوا الجاني .

وابتسمت .. احسست وكانها تهنئني ...

اقتربت نوال مني ، حدقت في عيني برجاء ثم همست :

ـ صابر ، ستغمرني سعادة أبدية لو ترتوي من نبع التراب ، لو تحس بوجودك الحقيقي ، فتشاركنا الكفاح ، وتلبي نداء الارض الخالدة !!

واتسعت ابتسامتي وانا اتامل الرجاء الحزين في عينيها ..

الاردن — علي فوده



فــوزي عطــوي

رسالة التربيع والتدوير للجاحظ

بقلم فــوزي عطــوي

● ● ●

لا نسيغ لانفسنا القول بأن هذه الرسالة الجاحظية الموسومة « بالتربيع والتدوير » تستوي في مقام واحد مع كتـب « الحيوان » و « البيان والتبيين » و « البخلاء » التـي وفقنا الله تعالى الى تحقيق نصوصها ، والتقديم لها قبل الان (١) . فالكتب الثلاثة هي الدعائم المتينة التي قامت عليها شهرة الجاحظ ، وصيته الذائع ، فيمـا جـاءت مؤلفاته الباقية ، ومنها هذه الرسالة ، لبنات وثيقة فـي بنائه الفكري القيم .

الا أن ما في « التربيع والتدوير » من اهمية خاصة ، كامن في الترابط الكلي بينها وبين كتاب « الحيـوان » ، بحيث يصعب فهم ما ورد في هذه الرسالة ، اذا لم يكـن القارىء ملما بما جاء في « الحيوان » من حلول موضوعية لمختلف المسائل الفكرية والدينية والتاريخية والفلسفية والاجتماعية التي طرح الجاحظ العديد منها في كتابـه « الحيوان » ، كما انه ينبغي الاطـلاع على « التربيـع والتدوير » من أجل فهم الروح التي تشيع في «الحيوان» بصورة عامة .

ذلك ان رسالة « التربيع والتدوير » الموجهة الـى « احمد بن عبد الوهاب » ، تنطوي على مائة مسألة مـن المسائل ــ الالغاز التي يصرح الجاحظ بانه وضعها لتعجيز احمد بن عبد الوهاب ، من اجل ان يهزأ بـه ، ولكـي « اعرف الناس مقدار جهله ، وليسأله عنها كل من كـان في مكة ، ليكفوا عنا من غربه ، وليردوه بذلك الى ما هـو اولى بـه » .

ولكن المسائل الواردة في « التربيع والتدوير » بقيت دون حلول ، ومن المؤسف ان احدا من كتاب العربية او غير العربية لم يكلف نفسـه ، حتى الان ، عناء البحث عـن حلول مسائل « التربيع والتدوير » التي طرحت بصـورة كيفية معروفة عن ابي عثمان الجاحظ .

فمن هو احمد بن عبد الوهاب ؟ وما شانه مع اهل مكة ؟ وما حكايته مع رسالة « التربيع والتدوير » ؟

ليس احمد بن عبد الوهاب شخصية مرموقة ، في التاريخ العربي ، وكل ما نعرفه عنه من اوصاف ، غـير الاوصاف الساخرة الجارحة التي ذكرها الجـاحظ في اولى صفحات رسالته ، انه كان كاتبا ، في عهد الخليفـة العباسي « الواثق » ، وانه صاحب الابيات التي انشدتها جارية لاخيه صالح بن عبد الوهاب ، تدعى «الصالحية» ، امام الخليفة الواثق ، فاعجب بها الخليفة أيما اعجـاب ، وطلب ان تكون له ، أيا كان الثمن .

الا ان « صالحا » اغلى ثمن جاريته ، وبالـغ حتـى رغب في ان يوليه حكم مصر ، اذا شاء الخليفة ان تكـون الجارية له . ولكن مداخلات الوزير ابن الزيـات جعلتـه يوفق الى اقناع صالح بن عبد الوهـاب بترك الجاريـة للخليفة ، لقاء خمسـة الاف دينار .

وبعدما تخلى صالح عن الجارية ، امتنع ابن الزيات عن دفع المبلغ المتفق عليه ، الى صالح ، فاضطر هذا الاخير للجوء الى الحيلة ، عله يقتضي دينه من الوزير الناكل ، بالتي هي اسوأ ، بعدما تعذر عليه اقتضاؤه بالتـي هـي احسـن !

وكان لصالح صديق من الاعيان ، كثـيرا ما يأتيـه الوزير ابن الزيات سرا ، للهو والشراب ، فكان يكفي صالحا ان يفاجيء الوزير في جلسة من هذا الطراز ، وهو امـام مائدة الخمرة المحرمة ، بين الغلمان والجواري ، حتـى يتقي الوزير الفضيحة ، فيدفع الدين الى صاحبه .

وهكذا كان . حتى اذا حصل صالح علـى النقـود الذهبية من ابن الزيات اعتزل خدمة الدولة العباسـية ، وانسحب الى ضيعة اشتراها بمال الوزيـر ، فـي مكـة المكرمـة .

الى هنا ، والسرد تاريخي صرف ، لا سبيل لنا فيه الى استنتاج . غير ان اللبيب يفهم ، دون مشقة ، انـه ترتبت على هذه الحادثة ــ الحيلة مضاعفات كثيرة ، منها ان ابن الزيات بدأ يكيد لاحمد بن عبد الوهاب الكاتـب ، تشفيا من أخيه صالح ، حتى اضطره الى اعتزال الوظيفة ،

---

(١) يعتني كاتب المقال باصدار سلسلة من المؤلفات والدواوين ، محققة على اقدم نسخها ، ومنها كتب الجـاحظ التي ظهر منها حتى الان : « الحيوان » و « البيان والتبيين » و « البخلاء » ، وسـوف تصدر قريبا رسالة التربيع والتدوير التي وضع لها محققها هـذه الدراسـة وجعلها مقدمة للرسالة المذكورة .

واللحاق بأخيه في مكـة .

عندئذ ، ولئلا يعمد ابن الزيات الى تصرفات تشينه، ان هي كشفت حقده على الشقيقين ، لجأ الى صديقه الجاحظ ، يكلفه بمهمة الانتقام ، ولكن على طريقة جديدة ، يفضح الجاحظ بها جهل احمد بن عبد الوهاب ، ويكشفه على حقيقته امام اهل مكة ، واضعا بين أيديهم اسئلته التي نستطيع ان نصفها ، بحق ، انها الغاز ترمي الى الاعجاز .

ولربما سأل سائل : ولم توجه الرسالة الى احمد بن عبد الوهاب ، لا الى اخيه صالح الذي كان سبب نقمة ابن الزيات وحقده ؟ والجواب البسيط ان الجاحظ يثير في الرسالة مواضيع فكرية وتاريخية وعلمية مختلفة لا يحسن ان توجه الا الى رجل مارس صناعة الكتابة ، فتوجيه الرسالة ، في هذه الحال ، الى احمد بن عبد الوهاب ، لا الى اخيه صالح ، هو اوفق ، وأدعى الى السخرية .

وبعد ، فهل وضع الجاحظ حقا رسالته على الصورة الماثلة بين ايدينا ؟

ان من المتفق عليه ، بين النقاد والعلماء ، ولا سيما المستشرقين منهم ، ان يد النحل والتزييف امتدت الى رسالة الجاحظ هذه ، كما امتدت الى مؤلفاته الاخرى ، و لى مؤلفات سواه ، فطرا عليها من الزيادة والنقصان . ما جعل من الصعب التمييز بين الصحيح والمنحول ، خصوصا وان الجاحظ يلقي بأسئلته (ولو احصيناها لما وجدناها مئة سؤال ، كما يصرح ابو عثمان في بداية الرسالة) ، كيفما اتفق له ، دون إتباع نهج واضح ، او تسلسل منطقي ، وذلك خلافا لروحه الاعتزالية التي تقيم وزنا كبيرا للعقل والمنطق وعلم الكلام .

ولكن الاسلوب الجاحظي المعروف ، يسيغ في اكثر الاحيان اسقاط بعض ما يبدو نبوه عن السياق ، الا انه ان اساغ اسقاط البعض ، فهو لا يسر اسقاط الكل ، في اي حال .

ثم ان عنوان الرسالة بذاته هو عنوان مستحدث . فالجاحظ الذي كاد ان لا ينسى عنوانا لكتاب من كتبه ، في مقدمة كتابه « الحيوان » ، يغفل ذكر « التربيع والتدوير » ويكتفي وحسب ، في الجزء الاول من « الحيوان » بأن يحيل من لا يفهم بعض محتويات سفره الضخم، على الرسالة التي كتبها الى احمد بن عبدالوهاب.

وعليه ، يكون العنوان من وضع الناسخين الذين استمدوه من الفاظ في داخل الرسالة او من بعض محتوياتها ، والحقيقة اننا لا نستطيع الجزم بمدى توفيق الناسخين ، حين اختاروا عنوان « التربيع والتدوير » الذي يوحي بالبحث الهندسي الصرف ، لهذه الرسالة التي لم يدر في خلد الجاحظ ان يوقفها على الهندسة وحدها .

وعلى الرغم مما يعتور هذه الرسالة من اسباب التبديل والتعديل ، فحسبها ان مصيرها لم يشابه مصير العديد من الرسائل والكتب الجاحظية المفقودة ، والتي تترك للزمن ، ولهمة الباحثين المتفرغين ، ولا سيما طلاب الدراسات العليا في الجامعات ، مهمة اكتشافها في المتاحف والمكتبات العالمية .

اما « التربيع والتدوير » فان بعضا من اجزائها الثابتة محفوظ في المتحف البريطاني (رقم ١١٢٩) ، وان بعضا آخر من اجزائها محفوظ ، هو الاخر ، في برلين (رقم ٥٠٣٢) ، كما ان ثمة نسخة في القسم الشرقي للمكتبة الجامعية في « ليد » ، وتحتوي على « فضائل الترك » و « رسالة التربيع » ، نقلا عن نسخة مالك طاهر (دمشق ١٢٥) ، فضلا عن نسخة نقلت في حلب عام ٤١١ للهجرة ، ولكنها رديئة ، ومحفوظة بالمكتبة الظاهرية في دمشق .

هذه النسخ المختلفة كانت موضوعا لعدة دراسات وتحقيقات ، كان الفضل الاول في القيام بها ، للمستشرق الهولندي ج. فان فلوتن ، ولكن المنية وافت فلوتن ، قبل ان ينجز تحقيق الرسالة ، فنشرها بعده ، ج. م. دو حوج ، دون تعديل يذكر ، وذلك في منشورات (تريبا اوبوسكولا ـ ليد ١٩٠٣) ، بعد ذلك ، ظهرت الرسالة في ثلاث طبعات شرقية ، معتمدة كلها على نسخة فلوتن ، وهي : مجموعة رسائل الجاحظ (القاهرة ١٣٢٤) ، ومنشورات محمد مسعود (مطبعة الجمهور ـ لم تذكر السنة) ، ومنشورات السندوبي (رسائل الجاحظ ـ ١٣٥٢ ـ ١٩٣٣) ، ولا يفوتنا ان نذكر ايضا هوامش كامل المبرد التي يشير فيها بعض مقتطفات من الرسالة .

ولعل اكثر النسخ دقة ، النسخة المقترنة بدراسة ادبية وتاريخية وبيبليوغرافية مطولة لشارل بلات ، الاستاذ بمدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس ، والصادرة في عداد منشورات المعهد الفرنسي بدمشق (١٩٥١) ، والمحفوظة في دار الكتب الوطنية اللبنانية (رقم النسق ٣ ـ ٧ ـ ٨١ العدد (التسجيل ١١٠١) .

ولكن ما يلاحظ في النسخة المذكورة كونها مقسمة الى مقاطع اتفاقية ، وذلك ليسهل بلات على نفسه وعلى قارئه امر المراجعة البيبليوغرافية .

اما نسختنا هذه ، فنرجو ان تكون قد وفقنا فيها الى تدارك ما في نسخ غيرنا من مآخذ ، لتأتي على الصورة التي نرجح انها الاكثر انطباقا على مضمون الرسالة الاصلية التي وضعها الجاحظ . وحسبنا ان نقدمها هدية متواضعة الى ناشئتنا الحبيبة ، من طالبات وطلاب البكالوريا اللبنانية ، بعد ان ادخلت على برامج الادب العربي في الفرع الادبي وفرع اللغات القديمة بموجب ملحق المرسوم الجمهوري رقم ٩١٠١ الصادر تاريخ ٨ كانون الثاني ١٩٦٨ ، لعلها تكون اسهاما متواضعا الى جانب شقيقاتها الثلاث « الحيوان » و «البيان والتبيين» و « البخلاء » ، في تيسير الثقافة الادبية العربية لاجيالنا ، شباب لبنان والعرب . والله الموفق .

فوزي عطوي

احبك فوق ما أصف

آخر قصيدة من ديوان « أفواف الزهر » المعد للطبع

اني أحبك فوق ما أصف   حبا به يستحسن السرف
لا أدعي .. فالصدق من شيمي   كلي لكم تبع بكم كلف ..
ان انكر المشتاق او عرفوا   فبحبكم ابدا ساعترف ...

مولاي .. ان الحب تيمني   والحب يرغم من به أنف ..
لي مهجة للحب قد نذرت   وقف عليها الوجد والتلف ..
اني اتجهت فانتم قبلي   اني انصرفت فليس منصرف
الوهم يا مولاي يعصف بي   والآه والأشواق واللهف
واليأس يرميني على حرق   من هولها الاضلاع تنقصف
صبري تخونني فلا جلد   والعين جامدة فما تكف
واكاد لولا ان بي نفسا   او خافقا من يأسه يجف
واكاد لولا أن بي أملا   القاك .. لو تحنو وتنعطف
واعيش ارجو ان تعاللني .. !   لو انصف الظلام او رافوا
واكاد يا مولاي يلعب بي   سر تعالى فوق ما اصف ..

مولاي ان الحب بي دنف   واراك يا مولاي .. تحترف .. !
ضدان قد جمعا على غرر   ان التكلف ضده الكلف
لو يرعوي في الحب ذو نزق   لو عاود الايمان منحرف
قلبي اضيع .. فاين انشده ..   يا للجريمة كيف تقترف .. !
سيان بعد اليوم ان نقضوا   سيان ان ظلموا وان عطفوا
لا شيء بعد اليوم ينفعني .. !   عز الدواء وعي من يصف .. !

اني لمن قوم بهم شمم   قومي العلى والعز والشرف
سل عنهم الايام غابرة   ولتشهد الآثار والتحف
قومي هم التاريخ اذ كتبوا   امجاده فلتقرأ الصحف
فرع انا من نخلة بسقت   وزكت فطاب العزق والسعف
ممتدة الافياء وارفة   تزهى بها الساحات والشرف
الحسن بعض من مخايلها   لله قد زانه الهيف
والعز معنى في شمائلها   معنى به عرفت كما عرفوا
قومي هم قومي هم ابدا   سلف يجدد ذكره خلف
قولوا لمن جهلوا .. لمن عرفوا   نحن الألى عزوا ، الألى شرفوا
انا وان كاد العداة لنا   والدر قد يزري به الصدف :
نبقى .. وتبقى الدهر رايتنا   شمسا توهج ليس تنكسف

جامعة بغداد   عاتكة الخزرجي

ابو ماضي الشاعر

بقلم نسيب الاختيار

***

في الوقت الذي كان فيه الشعر العربي في الوطن الام يودع آخر مراحله الكلاسيكية في ذات احمد شوقي ، ومن هم على شاكلة احمد شوقي ، كانت هنالك في المهجر آفاق تتفتح ، آفاق رومانتيكية ليست بالجديدة في شكلها ومحتواها في دنيا الشعر العالمي ولكنها جديدة في دنيا الشعر العربي ، قد تجلت هذه الظاهرة المحدثة في شعراء مهجر الشمال اكثر منها في شعراء مهجر الجنوب وكانت لها دوحتها التي تفرعت منها غصون ، تنوعت ثمارها ولكنها نهلت من ينبوع واحد ونمت في أفق واحد وكان ابو ماضي احد تلك الاغصان التي اورقت وازهرت في ذلك الجو الشعري الرومانتيكي الذي انطلق من المهجر الى الوطن الام ليسير في موكب الشعر الكلاسيكي وهو يلقي سلام الوداع ..

كانت موجة الرومانتيكية التي طغت على شعر المهجر في الشمال الاميركي جديدة في دنيا الشعر العربي ، وقديمة في دنيا الشعر العالمي ، فقد كان لون الرومانتيكية الذي تحلى به شعر المهجر يختلف اختلافا كليا عن لون الرومانتيكية التي عرفها الشعر العربي في متباين ادواره ومختلف مراحله وذلك لان رومانتيكية المهجر تأثرت بنزعة فلسفية على حين ان الرومانتيكية التي عرفها الشعر العربي فيما سلف من ايامه ما خلا الشعر العربي الصوفي لم تتأثر بنزعة فلسفية معينة وانما كانت عاطفة وجدانية تتالق في ومضات لها تموج الساقية ولها ضحالتها ولها انسيابها فالشعر الغزلي حتى الشعر العذري كان خلوا في رومانتيكية من فلسفة ذاتية او كونية على حين ان شعر المهجر في الشمال الاميركي كان زاخرا بالفكر حافلا بالخواطر التي اخذت بحظ كبير من فلسفة الرومانتيكية ولكن هذه الخواطر وتلك الفكر التي اتسمت بها رومانتيكية شعر المهجر في الشمال لم تنبع من تلقاء ذاتها فقط ولم تصدرها عن جوها الخاص فحسب وانما صدرت ونبعت ايضا من الثقافة الغربية الثقافة الرومانتيكية الانكليزية والالمانية والروسية .

ثقافة ترتد في اصولها الى القرن الثامن عشر والى عصر النهضة وتوغل في القدم الى عصر الاغريق ، فقد تأثر شعراء المهجر وفي طليعتهم ايليا ابو ماضي تأثرا عميقا وحيا بهذه الثقافة ، فنزعة الحب المجرد والعودة الى الطبيعة واللذة في الالم والتجربة الباطنية ان كل هذه الاشياء تجلت بصورة واضحة كل الوضوح وعلى درجات متفاوتة في التصور والتصوير في شعر ابي ماضي ، وهذا التأثر بالثقافة الغربية الرومانتيكية لا يمنع ان شعراء المهجر لم يتأثروا بالرومانتيكية العربية . لقد تأثروا بالشعر الصوفي العربي ولكن الاثر الذي خلفه الشعر الصوفي العربي في مشاعرهم وفي افكارهم كان في مداه دون المدى الذي خلفته الفلسفة الرومانتيكية في قلوبهم وعقولهم . لقد تأثروا بقصائد شيلي وكوتـه وبوشكين ، اكثر من قصائد ابن عربي وابن سينا وابن الفارض . ولاقت الفلسفة الرومانتيكية هوى في نفوس شعراء المهجر لانها تجاوبت مع ثورتهم الاصيلة الثورة على التفرقة الطائفية والاضطهاد الفكري والنظام الاقطاعي .

وفد ابو ماضي الى المهجر ، وفي نفسه آثار من تراث الشعر القديم ، فقد طبعه الوسط الفني الذي عاش بين ظهرانيه في الشرق بطابعه التقليدي الكلاسيكي وكان ديوانه الاول « تذكار الماضي » صورة صادقة عن هذا الطابع ، ولم يتحرر ابو ماضي التحرر كله من صبوة العودة الى القديم الا بعد حقبة من الزمن اذ كان ديوانه الثاني « ديوان ايليا ابو ماضي » الذي صدر وهو في المهجر ، يضرب بجناحي شاعر ، لم تزل حياته تسير وراءه كان تراث الشعر الماضي يجره اليه في الوقت الذي كانت فيه الافاق الجديدة تهيب به وتدعوه . ولم تطرق هذه الدعوة وذاك الهتاف اذن الشاعر الا بعد ان ولج الوسط الادبي الجديد ، وسط الجماعة التي انتظمتهم الرابطة العلمية ، فقد كشفت انوار ومشاعر الافاق الجديدة عن وجهها النقاب وتبدت له في حقيقتها العارية فالقى بنفسه في اجوائها الفساح ليلد ولادة جديدة فكان مثله في المهجر كمثل كوته في ايطاليا حينما هتف وهو في روما .. « الان ولدت من جديد » .

لقد التقت افكار ابو ماضي ومشاعره بأفكار ومشاعر المبدعين من شعراء العرب الاول ، وهو في الوطن الام ، ولكن هذا اللقاء لم يدفعه الى الامام ، بل امسك بتلابيبه يجره اليه فغلب التقليد في شعره على الابتكار والاتباع على الابداع . اما في المهجر فان الوسط الفني الجديد الذي عاش بين ظهرانيه دفع لقاء الشاعر بالمبدعين من شعراء العرب الاول الى الابتكار بدلا من التقليد والابداع عوضا عن الاتباع . وهكذا اخذت شخصية ابي ماضي الشاعرية تحقق ذاتها وتتبلور في صور وفكر ما كان في الامكان ان تنبثق عما انبثقت عنه لو ظلت في ذلك الوسط الذي بقيته رواسب الماضي فيه ، تجذب الشعراء من اقدامهم ليظلوا في آماد عن تجدد سطحي يقف على اعتاب امس واليوم .

وكانت الحركة التجديدية التي تولى امرها ادباء مهجر الشمال وفي طليعتهم ابو ماضي ابعد من ذلك

التجدد الذي رمى الى التحرر من القافية الواحدة والاوزان المتبقة والالاعيب اللفظية والابواب الشعرية المحددة ، اذ ولجت هذه الحركة حديقة لم يلجها الشعر العربي لا في أزمنته السالفة ولا في أزمنةالبعث الحديث.

فنحن نجد نظراء لابي ماضي في الشعر الغربي ، نظراء في الشعر الانكليزي والالماني والفرنسي والروسي ، نظراء تأثروا بنعس النزعة الرومانتيكية ذات الخاطرة الفلسفية سواء اكان ذلك في تصويرهم وتصورهم للحياة ام الطبيعة ام الوجود ، ولكننا لا نجد نظراء لابي ماضي في الشعر العربي الحديث ، ذلك لان شعراء العرب الجدد الذين اخذوا بقسط من الرومانتيكية تاثروا بمظاهر عاطفتها الفضفاضة الضحلة ، لا بفكرتها العميقة الرحبة التي تمتد جذورها الى الفلسفة الابداعية التي ظهرت في الغرب ابان القرن التاسع عشر .

وابو ماضي اذ ينفرد عن شعراء العرب في الوطن الام في خواطره الفلسفية الرومانتيكية ، ينفرد ايضا بميزات خاصة عن شعراء المهجر ، الذين غلبت النزعة الرومانتيكية على مشاعرهم وافكارهم فلم ينظر الى الحياة والطبيعة والوجود نظرتهم ، ولم يذهب في التجديد المطلق مذهبهم .

الحالة النفسية الاتية ، هي مصدر الوحي في شعر ابي ماضي ، كانت هذه الحالة في فرحها وترحها واشراقها وعتمتها وتفاؤلها وتشاؤمها ينبوع الهام الشاعر ، فهو يفني فيها ويتلاشى ويمحي ويذوب حتى اذا فارقته رعدة الالهام ، كانت قصيدته تعبيرا صادقا عن تلك الحالة النفسية الاتية التي رانت عليه ، ولم يكن وهو غارق في عباب تلك الحالة يدوم في افق غير افقه الذاتي ، كان هذا الافق دنياه ، كان اقصى ما يمتد اليه بصره حتى اذا ارتد اليه هذا البصر ارتد وهو لا يمثل الا صورته :

لم ابصر ذاتي بالامس في لوح زجاج او ماء
بل لاحت نفسي في نفسي فهي الرائية والرائي

والعالم الخارجي عند ابي ماضي لا كيان له ولا وجود ، فكل انسان له عالمه وهذا العالم ليس الا مجرد صور افكارنا ومشاعرنا . فليست حوادث العالم الا حوادث هذه المشاعر وتلك الافكار .

كل قلب له الذي يهوى وان شئت كل قلب سماء
صور في نفوسنا كالنشات ترتديها الافعال والاشياء

فالحياة ما صوره لها الانسان نفسه في سكونه وحركته فيما يكن وفيما يبدي :

ليست حياتك غير ما صورتها انت الحياة بصمتها ومقالها

لا بل آن اباماضي يعتقد بانه هو الامس وهو الحاضر وهو المستقبل وان الحياة كلها قد أنطوت فيه :

كل ما قد لقيت مثلك يا نفسي فيما تبدين او تخفينا
فانظري مرة اليك مليا تبصري الاولين والاخرينا

وعلى هذا النحو من النظرة الرومانتيكية يطالع الشاعر العالم انه ينظر اليه من مرآة ذاته فلا تعكس هذه المرآة الا افكاره ومشاعره ولا يتجلى في هذه المرآة الا امتداده عبر العصور امتداده الازلي في اللانهاية .

وتذهب النزعة الذاتية بأبي ماضي حدا بعيدا من التصور الشعري ، بحيث ان النفس الجميلة تضفي على الحياة جمالها ، والبسمة المشرقة التي تلوب على شفاه الانسان تهب الوجود الاشراق والزهو والمرح . وقد عبر عن هذه العاطفة في عدد من قصائده مثل قصيدة « كن بلسما وابتسم وكم تشتكي» كما تذهب النزعةالرومانتيكية حدا بأبي ماضي تحمله على اجنحة من الخيال القصي ، فتصور له انه في مقدور الانسان ان يحقق ما يصبو اليه في ذات نفسه اذا عز عليه تحقيق ما يريد خارج اطار هذه الذات .

اذا انا لم اجد حقلا مريعا خلقت الحقل في روحي وذهني

ولكن الحالة النفسية التي اوحت اليه بهذه النظرات الى الحياة لم تكن حالة مستقرة ولا ثابتة كانت متحولة متقلبة ، كان الشاعر الذي يقول « كن جميلا ترى الوجود جميلا » والشاعر الذي يردد :

هو عبء على الحياة ثقيل من يظن الحياة عبئا ثقيلا

والشاعر الذي يعتقد بان نفسه هي ينبوع السعادة وانه محور الوجود هو نفس الشاعر الذي يقول مخاطبا نفسه :

نفسا الورى ليل وصبح مبين وليس في دنياك الا الضباب

وهو نفس الشاعر الذي يقول :

واري السماك لا وصول لعرشها الا باجنحة من الوسواس

وهو نفس الشاعر الذي يمسح الغشاء الجاثم وراء مظاهر الحياة نظرة التفاؤل والامل والاشراق من عينيه . .

ما لاحت الاشجار للناظرين الا رايت شبح الفاس

ويمتد دبيب التشاؤم في كآباته السوداء الى شعر ابي ماضي يمتد وهو يعبث باصابعه في مسارب واطواء تلك النفس الحساسة المرهفة ، فاذا بالشاعر يصور في قصيدة « من انا » وقصيدة « الفراشة المحتضرة » وقصيدة « السجينة » همسات العدم وقد اذر رداءه القاتم فمحى المساء النار وصوحت الزهرة ، وتناثرت الفراشة وغشى الضباب ذات الشاعر فلم يجدها جمالها ولا ابتسامها ولا تألقها ، وحضنت الكآبة كل شيء فغاض الارج وغاب النور ، وفاض القلق والضجر والسأم ، وبدا الانسان على حقيقته الانسان الذي لا يرضى ولا يطمئن ، انسان قصيدة « الاسطورة الازلية » حتى الطبيعة التي اولاها أبو ماضي قسطا موفورا من العودة الى احضانها بغية الفرار من الجبرية الاجتماعية تفقد رواءها في تلك الحالات النفسية المتشائمة التي تلف الشاعر بضبابها الكئيب .

وفي غمرة هذه الحالة النفسية كان ابو ماضي يجنح الى الاستماع الى الحب ، ولكن الحب عند الشاعر لم يكن دائما وابدأ صرخة جسد ، بل أنه كان يرقى الى اسمى معانيه . كان يرقى الى حالة الاتصال .

ان نعمــا لـم يشرك الحب فيها   هي نفس لـم تـدر ما معناهــا

ان هذه الفكر التي اودعهــا ابو ماضي في صــــور شعرية هي لباب الخواطـــر الفلسفية في المذهـــــب الرومانتيكي . ونحن حينما نطالع شعر ابي ماضي ، نطالع شعرا رومانتيكيا ترنق عليه قسمة من تشاؤم واشراقة من تفــاؤل .

اذا كانت النزعة الرومانتيكية التي غلبت على شــعر ابي ماضي فاتحة عهد جديد في تاريخ الشـــعر العربـي الحديث ، فانها في الواقع خاتمة هذا اللون من الشـــعر في تاريخ الادب ، ذلك لان النزعة الرومانتيكية طرقت باب الادب العربي في الوقت الذي تحتضر فيه بواعث انبثاق فجر هذه النزعة ، فقد نشات النزعة الرومانتيكية فـي ظروف تاريخية معينة في حياة المجتمـع الانســـاني ، وستغير هذه النزعة وتمضي بافول الظروف التي استدعت نموها ، وزوال المرحلة التاريخية التي تطلبت وجودها ، فاذا كان احمد شوقي آخر الكلاسيكيين فان ابـا ماضي آخر الرومانتيكيين .

على ان ابا ماضي آخر الرومانتيكيين الذي سلك في شعره طريقة لم تعد تتجاوب مع حاجات العصر ومطالبه ، وهب الشـعر العربي صورا جديدة وآفاقــا حديـدة ، ان الطبيعة التي احبها ابو ماضي لم تكن في نظره مجرد دميه جميلة يفيء الى هيكلها ليرفع اليها ضراعته الوجدانيــة ، وانما كانت حياة ، حياة تمور بصور جميلة حضنها الشاعر في لوحات ناطقة ، بحيث أن هذه اللوحـــات لم تكـن فوتوغرافية صماء وانما كانت معبرة متوجـة تمن لهـث عاطفته وموسيقية الفاظه وعمق نظرته صاغ صوره ، فكان بذلك من اولئك الشعراء القلائل الذيــــن استطاعــوا ان يحققوا الانسجام بين تموجات العاطفة وتموجات الالفاظ في صورهـــم الشعرية .

ولم تكن هذه الصور مقتصرة على الطبيعة وحدها ، بل انها امتدت الى مــارب النفس الانسانية فصورتها في شتى حالاتها ، في حيرتها وشكلها وامالها ورجائها ، وقلقها واضطرابها وتصورها ورؤاها ، كما امتدت يد الشـــاعر الفنان الى تصوير الحركات المتلاحقة التـي يستدعيهــا الموضوع الشعري ، فكانت هذه الحركات اشبه بشريط فني متتابع اللوحات ، وقد غلبت صور المعنى عند الشاعر على صور الحس صور الجمال لا الجميل ، والشجاعـة لا الشجاع ، والكـرم لا الكريم فخرج بذلك ابـو ماضـي على مالوف صفات الشعر العربي العامة الصفـات التـي تميزت بغلبة الحس على المعنى .

والى جانب هذا كله ، فان صور الشاعر كانت تؤلف وحدة في القصيدة وحدة فنية تجعلها متماسكة متلاحمة تؤلف في شكلها ومحتواها كلا واحداً . وهذه الوحدة لم تقتصر على شعر ابي ماضي القصصي الحـواري وانمـا شملت معظم قصائده بحيث انها كانت سمة فارقة لشعره .

واما الافاق الجديدة التي تطرق اليها ابـو ماضي فهـي مواضيع شعره فقد خرج ابو ماضي عن آخر المواضيع الشعرية التقليدية المواضيع الكلاسيكية التي درج عليهـا شعراء الوطن الام وما زالوا يحومون حولها حتى اليـوم ، فنظرة واحدة يلقيها الانسان على عناويـن قصائـده في ديوان « الجداول » وديوان « الخمائل » كافية ليدرك من اول وهلة ان الشاعر يعيش في آفاق جديـدة في دنيـا الشـعر العربي .

واذا كانت القصة ، والقصة الحوارية ، والقصـــة الاسطورية ، تؤلف شيئا هاما وجسيما في آفاق الشاعر ابي ماضي ، فان ثمة لا نهايات اخرى من الافاق حلق فيها الشاعر آفاق حكمة ادثرت ثوبا ومزيا صور اهواء الانسان ومطامح الانسان ، كما هو الحال في قصيدة (الضفادع والنجوم والتينة الحمقاء ، والحجر الصغير ، والغديـر الطموح . .) ولم يكن الثوب الرمزي الذي تغلفت به هذه القصائد ثوبا مبهما مغلقا يتيه النظر في شكله المصطنـــع ويضل ، وانما كان صافيا شفافا يدرك الانســان مغـزاه بسهولة ويسر .

وضع ابو ماضي الشاعر ، على اريكة عالية ، فيـه نعمة واشراق العبقرية ، انه الانسان الذي يضفي الحياة في اسمى معانيها واروع صورها على كل ما يتراءى لـه ويبدو انه ذلك الانسان الذي يرينا الرقة الحقيقيــة فـي الاشياء ، ولكن الشاعر الذي يحبه ابو ماضي ويمجده كائن له رسالة في هذه الحياة الدنيا ، وهو في سبيل آداء هذه الرسالة لا يتوانى عن التضحية بوجوده . ولكــن هـــذه الصورة التي خلعها ابو ماضي على رسالة الشاعر كانــت صورة ذاتية لا صورة موضوعية ، فالمحتوى الذي تـالف منها لبابها كان محتوى فرديا مثاليا محتوى يجعــل مــن الشاعر انسانا فوق المجتمع ، انسانا اوتي من المواهب الشخصية ما يتيح له بمفرده ان يحقق الغرائب . فليست الرسالة التي أناطها ابـو ماضي بالشاعر رسالة موضوعية وانما هي ذاتية .. وعلى اساس هذه النظرة عالـج ابـو ماضي الابواب الاجتماعية التي تطرق اليها في شـــعره فانسانيته المثالية التي تقوم على العطف والرحمة والحب هي التي اوحت اليه قصيدة « اليتم » وقصيدة « كلـوا واشربوا » حتى قصائده الوطنية نظير « قضية فلسطين » كانت عاطفة مجنحة .

لقد كان ابو ماضي مثل معظم شعراء هذا العصر ، انسانا يعوزه النضج السياسي النضج الذي يهتـك لـه السجف ويجعل من صور افكاره ومشاعره صوراً واقعية تتجاوب مع المرحلة التاريخية التي يحياها الشاعر .

ولعل ابرز مظاهر هذا الفقر في النضج السياســي لدى ابي ماضي القصائد التي اشاد فيها بالحلفاء ابـان الحرب العالميـة الاولى .

ان هذه النظرة لرسالة الشعر والشاعر ، خرجـت

ضبابة وغابة

الى روح « رينر ريلكه »

وددت لو كنت غابه
مررت فيها ضبابه
تمسح وجه الشمس
بين غد وأمس
من بله الرتابه

وددت لو كنت غابه
اقدامي ارتياح
جدائلي الرياح
ما همني اي حد
وفي ضلوعي قدر من ظلها يمد
امضي خليا مثلما ترقرقت سرابه

وددت لو كنت غابه
تهيم فيها ضبابه
تجول في غصوني
تمتاح من شجوني
وعندما يحبل الضياء
تنشرني في الفضاء
بعد خيال السماء
تجوس بي غيابة غيابه

تعود فوق ريشها من الغيوب عطر
رسالة من عنده فيها رؤى وشعر

وتستردها البحار
في معبر الفصول
تمضي على انتظار
في عمقها الطويل
وعندما يلملم الخريف اوراق الغصون
يلرها في عصفات الريح والشجون
تشتاق لي
في دربها المخملي
تضمني سحابة سحابه
تذوب فوق غابه

علي شلق

بابي ماضي عن المفهوم الجديد لرسالة الشعر ورسالة الشاعر ، ووضعتهما في مستوى غير مستوى العصر الذي نعيش بين ظهرانيه .

لقد كان ابو ماضي احد اولئك الشعراء المجددين الذين تحلوا بطابع خاص ، لا بين شعراء المهجر فحسب ، بل بين شعراء العرب المحدثين أيضا ، فاذا اتسم شعر المهجر بميسم التحرر من شكل ومحتوى الشعر القديم ، واذا غلبت النزعة الذاتية في شعر المهجر على النزعة الموضوعية ، واذا دوم شعراء المهجر في آفاق الرؤى والتصور والخيال ، بدلا من الانطلاق في عالم الحقيقة والواقع ، واذا آثر شعراء المهجر حياة الطبيعة على حياة المجتمع ، واذا آمن شعراء المهجر بأن الشعر رسالة ، فان ابا ماضي احتوى كل هذه الصور وحضنها ، ودفع مداها العميق الرحب ، الى حيث لم يصل اليه اي شاعر مغترب .

واذا كان هذا هو شأن ايليا أبو ماضي في دنيا شعر المهجر ، فان شأنه في دنيا شعر الوطن الام ، ابعد مدى ، واقصى شوطا ، ذلك لان عالم ايليا في دنيا شعر الوطن الام ، جديد كل الجدة في طراز صوره وتصويره للاشياء ، اذ فتح ، سواء أكان ذلك في « الجداول » ام في « الخمائل » ، معالم طريق لابواب غير معهودة في الشعر العربي ، ابواب كان يلجها كل انسان ، ويجوس حديقتها ، ويفيء الى ظلالها ، ويستنشق عبيرها ويرنو الى جداولها ، كان يفعل كل هذا ، دون ان يعبر عما املاه وعما تجلاه ، تعبيرا تبدو فيه الافكار في صور .

نسيب الاختيار

انور الجنـدي

حسن العطار وعبد الغني حسن

بقلم انور الجندي

* * *

هل يعطي كتاب واحد : « ابعاد العمل الادبي » لكاتب من الكتـاب ؟

ذلك هو السؤال الذي يتردد حين تقام نـدوة او يكتب ناقد عن كتاب جديد لكاتب من الكتاب ، وعندنا ان كتابا وحده لا يستطيع ان يعطي ابعاد العمل الادبي للاديب، ولذلك فان اللوحة الحقيقية للكاتب لا تكون مكتملة الا اذا عرضت صورة كاملة له ، يبرز هذا الكتـاب المعروض من بينها كاثر من آثاره ، وقطاع من أجنحة فكره .

ومنذ وقت قريب اقيمت امسية طيبة لعرض كتاب « حسن العطار » للاستاذ محمد عبد الغني حسن ، وكتاب حسن العطار اثر طيب من آثار كاتبنا الكبير قـدم فيـه لشخصية ممتازة من الشخصيات البارزة التي عرفتها مصر والعالم العربي في اوائل القرن الماضي ، وتردد اسـمها طويلا في مختلف الدراسات التي تناولت النهضة الادبيـة بعد حملة نابليون ، واقترن اسمه باسم تلميذيه الكبيرين : رفاعة رافع الطهطاوي ، ومحمد عياد الطنطاوي . فقد عرفه الناس انه هو الذي نصح لتلميذه « رفاعة » ان يكتب يوميات رحلته ، ولم يقف اثر العطار عند هذين العلمين فلعله قد اخرج عددا اخر من البارزين الذين عملوا في مختلف ميادين الازهر وميدان الفكر الاسلامي بعامة ، وان لم تؤثر عنه مؤلفات بارزة او آثار ضخمة .

غير ان « حسن العطار » ظل طوال هـذا الوقت لا يترجم له الا من خلال الاخرين ، ولم ترسم شخصيته بصورة كاملة الا حين اقدم محمد عبد الغني حسن على هذا العمل فسد به ثغرة في تاريخنا وادبنا الحديث .

ولا شك ان لكل كاتب منهج ، ولكل مؤلف طريقة ، ولكل باحث في عرض موضوعه نهج ، وفي التراجم يبدو طابع الكاتب اشد وضوحا ، والاستاذ عبد الغني كاتب مخضرم ، بدأ حياته الادبية في العقد الثالث من هذا القرن شاعرا وكاتبا ، ثم جرى اشواطا في هذه الفـترة فقـرأ وسافر وشاهد وجرب حتى استوى اسلوبه ومنهجه على هذا النحو الذي نراه في مؤلفاته وآثاره الوافـرة ، واذا كان لكل كاتب مزاج او طابع او مفتاح شخصية فالاستاذ من محققي التاليف والكتب قديمها وحديثها ، فهو محيط اشد الاحاطة بمـا الف في هذا الموضوع او ذاك ، وهـو عارف بالمؤلفين وعصورهم وآثارهم، مهما تقاربت اسماؤهم او تشابهت القابهم ، وهو محقـق للنصوص والاثار والوثائق ، خبير بصادقها وزائفها ، عليم بمناهج الباحثين والكتاب ودقائق اعمالهم ، وقد عاش عمراً طويلا مديـدا باذن الله في هـذه البوتقة الضخمـة : بوتقة المؤلفين والتاليف ، واستطاع ان يستخرج من هذا الحصاد الضخم اعمالا هامة ، قربت الى الشباب والمثقفين كثيراً مما انطوى في بطون الكتب الصفراء ، وقدم للباحثين المتخصصين عديدا من الحقائق التي كانت ولا تزال بمثـابة الاضـواء الكاشفة على طريق البحث الادبي .

ومن هنا كان الاهتمـام بكتابه في ترجمة « حسن العطار » في سلسلة نوابغ « الفكر العربي » ، فالعطـار اسم يتردد على الاسماع ونقراه في الابحاث ، منذ وقت طويل وتتصل اخباره بالحملة الفرنسية على مصر، وبترجمة الجبرتي وآثاره ، وبالازهر في مطالـع القرن العشرين ، ونحن نقرأ عنه انه كان من الذين ذهبـوا الـى المجمع الفرنسي وشاهد تجارب العلم الحديث ، ودعـا المصريين والشرقيين الى ضرورة الانتفاع بالحضـارة ، والعلم الحديث ، فكان بذلك في مقدمة المجددين والمستنيرين من علماء عصره ، وانه كان يصحب الجبرتي الى حيث يسمع ويرى من هذه الابحاث الجديدة ، وانه هو الذي أختـار رفاعة الطهطاوي « امـامـا » للبعثة المصرية الاولى التي سافرت الى فرنسـا ، وكان من اثر ذلك ان كتب رفـاعة رحلته الموسومة : « تخليص الابريز في تلخيص باريز » وانه جدد دراسات الازهر وأدخل اليها الابحاث الادبية .

هذا هو الذي كـان يتردد على الالسن عن « حسن العطار » غير أن ترجمة كاملة وافية عنه لم تكن ميسورة ، فاذا رجعنا الى كتب التراجم وجدنا سطورا قليلـة حتى جاء عبد الغني حسن فقدم هذه الترجمة التي كان هـو

وحده أين بجدتها واقدر الباحثين على الالمام بالحواشي المختلفة التي الفها العطار : امثال حاشيته على جمع الجوامع وعلى شرح الازهرية ، وعلى شرح الجبيصي ؛ وكتابه « الانشاء » ثم حاول استقصاء اخباره في عجائب الاثار للجبرتي ، ومجلة روضة المدارس التي راس تحريرها رفاعة الطهطاوي ، وراجع دواوين اسماعيل الخشاب وعلي الدرويش ومحمد شهاب الدين وكلهم من معاصريه ، ثم راجع ما يتصل به من الكتب التي عنيت بتاريخ الازهر ، وآداب اللغة العربية ، والحركة القومية وغيرها ، حتى استطاع أن يقدم هذه الصفحات الثمانين عن حياته ، واعماله ، ثم هذه النصوص من آثاره ، والتي بلغت ثلاثين صفحة ، وهي دراسة سريعة موجزة حقا ، ولكن ما الحيلة في ذلك وقد استقصى هذا الباحث المدقق كل ما يتصل بحسن العطار وعصره وتاريخه وتلاميذه وآثاره ، وعذيره في الايجاز أن العطار لم يكن مؤلفا واسع الانتاج ، كالجبرتي مثلا او رفاعة ولكنه كان من هذا الصنف الذي تبنى النماذج الطيبة من التلاميذ بالكلمة والحديث المتصل ، وكانت ابحاثه في الاغلب في مجال دراساته الازهرية ، في النحو والتوحيد والاصول والبلاغة ، وهي جميعها آثار وضعت على حواشي الكتب ، ولم يكن له من كتب مستقلة غير كتاب « الانشاء » وبالرغم من انه اقام في الشام خمس سنين ، كما عاش في بلاد الروم فترة من الزمن ، فمع ذلك لم تعرف عنه كتابات عن رحلاته تلك .

ويمكن القول انه صنف من العلماء عرفوا بقراءاتهم الواسعة ومع ذلك فليست لهم آثار ضخمة ، او اعمال مؤلفة ، وليس ذلك مما يعيب « حسن العطار » فان رنة اسمه في التاريخ الحديث كله لا تتصل بالتأليف والبحث العلمي ، بقدر ما يتصل بذلك التفتح النفسي والروحي ، وسعة الافق ، لمواجهة الحضارة الحديثة ، ولتخريج عدد من الاعلام ، وقد اشار عبدالغني حسن الى خصيصة حسن العطار التي اعطته هذا الاسم اللامع في التاريخ الحديث فوصفها بانها « التحرر الفكري والبعد عن الجمود ودعوته الى الاخذ بالعلوم الحديثة مع الاهتمام بالعلوم القديمة » وكان ذلك « مما جلب اليه الطلاب من كل فج » ويعني هذا أن « حسن العطار » كان مربيا ومصلحا ، حاول خلال تدريسه في الازهر وخلال توليه مشيخته ان يقدم نماذج طيبة من العلماء ، فيهم لمسة اليقظة التي كان يموج بها العالم الاسلامي في هذه الفترة ، وانه كان عاملا هاما في تخريج طائفة من الباحثين الذين قدموا اعمالا ضخمة في المرحلة التالية .

ومن الحق أن يقال ان مثل هذه الدراسات والتراجم التي تضيء الطريق امام اجيالنا للتعرف على هؤلاء الاعلام جديرة بالتقدير وما زلنا نطلب من الاستاذ عبدالغني حسن المزيد من تراجم اعلامنا المجهولين والمنسيين وهو من اقدر الناس على تقصي اخبارهم وآثارهم وله من حصيلته الضخمة ومراجعه الواسعة وخبرته الفائقة ما يمكنه من تغطية هذه المراحل في تاريخ الادب العربي المعاصر .

★ ★ ★

وبعد فهذا كلام يقال عن « حسن العطار » بحسبانه مؤلفا من مؤلفات بلغت الاربعين او اكثر كتبها المؤلف « محمد عبد الغني حسن » ولكن هذا الكلام لا يكفي في رأينا لرسم صورة صحيحة لهذا الباحث ، ولا بد من توسيع نطاق الصورة حتى تكتمل ونحن حين نراجع ثبت مؤلفاته نجد حصيلة ضخمة من الاعمال ونجد جهدا موفقا كبيرا ، ونراه لامعا كالنجم لا يخبو ضوؤه خلال أكثر من ثلاثين عاما متصلة ، وقد قدم أعمالا بناءة أثرت في أدبنا العربي ، وغطت عشرات من الجوانب والثغرات .

ومن الحق أن يقال انني حين راجعت بطاقات مؤلفاته في دار الكتب اليوم وجدت فيضا زاخرا من الكتب وعزوت ذلك في الاغلب الى امرين : الى قدرة الكاتب الفائقة في التاليف والى وجود المطبعة دائما تحت يده قادرة على اخراج آثاره اخراجا انيقا وسريعا في كل وقت . وتلك منة الله عليه ، فقد ظل « محمد عبد الغني حسن » يمثل ذلك النموذج الكريم نقاء سريرة ، وسلامة قلب ، وصدق حديث ، وقدرة بارعة على اعطائك الاجابة السريعة على اي سؤال مفاجيء عن الكتب والمؤلفين سواء في مجال الحديث او القديم ، عارفا بالطبعات المختلفة ، والنسخ المتوفرة ، ومفرقا بين المؤلفين ممن تتشابه القابهم ، فانك ما تكاد تهتف به حتى تجده على الخط الاخر نضرا مشرقا مجيبا لتساؤلاتك ، مشفيا نفسك مما تود أن تعرف او تتساءل ، وتلك مزية قد أكتسبها بطول الممارسة وبدقة المراجعة وبطول الجهد ، من خلال عقلية نادرة كانما خلقت خلقا لتكون دائرة معارف كبرى للمؤلفات والمؤلفين ولست ادري لماذا لا يقدم لنا موسوعة كبرى في هذا الباب يرجع اليها الباحثون . والاستاذ عبد الغني يعمل منذ ربع قرن تماما في هذه « الصناعة » الدقيقة ، وعمله هذا مزيج من الهواية والفن والاحتراف ، ولعل هذا المجال هو أكبر ميادين عمله ، حتى ليمكن أن يقال انه من أوائل الذين اجادوا « تقديم الكتاب » واني لاذكر وقت ان كنت مشغولا باعداد دراسة صغيرة عن « قوائم الكتب » التي تصدرها المكتبات الكبرى في القاهرة ، اذ وجدت ان صديقنا هو الذي أعد قوائم دار المعارف والانجلو والحلبي ودار الفكر ودار الكتاب العربي ومكتبة الاداب ومكتبة السحار ومكتبة فرانكلين .

وانه اصدر لاول مرة في العالم العربي مجلة متخصصة شهرية او دورية للتعريف بالكتاب فأصدر « بريد الكتاب » عن دار المعارف والدار القومية « وبريد المطبوعات » عن مؤسسة المطبوعات . وان مئات ومئات من الكتب مرت بين يديه في فنونها المختلفة وهو يكتب

يخطب المحال

ليس انكى على الفؤاد من الرشد
اذا بـان ان فـيـه الضـلالا
من ينم عندما النوائب تصحو
يجن من نومه البغيض النـكالا
ويرى حين يخطب المجد صرفا
انـه يخطـب الاسى والمـحالا

صيدا — محمد العدناني

عنها تعريفا لا يزيد احيانا عن خمسة سـطور ، تعريفـا جامعا مانعا ، وفي نفس الوقت سهلا وبسيطا لانه سـوف يوضع بين يدي كل قارىء ، هذا هو العجب عـن عمـل لا يضع عليه الكاتب توقيعا ولا ينسب اليه نسبة صريحة ، ولكن العجب يزول اذا عرفنا ان صاحبنا قد شغف بنقد الكتب منذ وقت بعيد بعيد جدا ، منذ عام ١٩٣٠ عندمـا كتب اول نقد لاول كتاب في المقتطف وكان الكتـاب هـو « المرأة العربية » لعبد الله عفيفي ، ومنذ ذلك الوقت ولا يزال صاحبنا يمضي في هذه البابة من خلال عدد مـن المجلات الكبرى غير المقتطف هي الثقافة والرسالة قليـلا ومجلة الكتاب واخيرا مجلة الكتاب العربي .

ومن حق ان يقال ان هذا المجهـود خصب بالـغ الخصوبة ، فكم كتاب قدم خلال هذه الفترة ، فاذا اضفنا الى هذا جانب المعرفة الشخصية بالمقابلة والمراسلة بينـه وبين صفوة ادباء العرب في عصرنا الحديث عرفنا الى أحد نحد مكان صديقنـا .

هذا جانب امـا الجانب الاخـر فهو جانب التاليف وهنا نجد عملا خصبا بالغ الخصوبة فمن خلال اكثر مـن اربعين مؤلفا من احجام مختلفة استطيع ان اقول انه كتب في عدد من الفنون الادبية واهمها في تقديري :

اولا ــ « تراجم الاعلام » : فقد عني بالترجمة لعدد كبير من الابطال والادباء في القديم والحديث في مقدمتهم موسى بن نصير وبطـل السند محمد ابو القاسم الثقفي والسيدتـان آمنه وخديجة ، وشجرة الـدر وابو مسلم الخراساني وصقر قريش عبد الرحمن الداخل والمقـري صاحب نفح الطيب وابن الرومي وعبد الله فكري ومحمد عياد الطنطاوي . والكاتبة مي واحمد فارس الشدياق ثم لحسن العطار .

وفي مجال التراجم له ايضا تراجم قصيرة اوردها في كتابه : اعلام من الشرق والغرب والتراجم والسـير وله ايضا في مجال التراجم كتابه « تيجان تهاوت » .

ومما يذكر في هذا المجال أن كتابه « بطل السند » طبع الان للمرة الثامنة وبارقام ضخمة تتجاوز كل تقدير .

ثانيا ــ له كتابان هامان احدهما في فـن التاريـخ العربي والثاني في فن الترجمة في الادب العربي .

ثالثا ــ له في مجال التراث وتحقيق المخطوطات عدد من الاعمال اهمها :

ــ حلية الفرسان وشعار الشـجعان لابن هذيـل الاندلسـي .

ــ وتلخيص البيان في مجـازات القـرآن للشريف الرضـي .

رابعا ــ له دراسة جيدة عن الشعر العربي في المهجر واعلامه . وله دراسة عن الفلاح في الادب العربي ثم لـه بعد ذلك عدد متنوع من الدراسات صدرت في مختلـف السلاسل المعروفة : اقرا ، تراث الانسانية ، نوابغ الفكر العربـي .

وله مؤلفات جامعة في مقدمتها كتابه « معض الادب والتاريخ الاسلامي » ، « ودراسـات في الادب العربـي والتـاريـخ » .

وهكذا نجد من خلال مراجعة آثار الاستاذ عبدالغني حسن انه قد اثرى المكتبة العربية وما يـزال ماضيـا في فتوة الشباب وصبر الرجال ، يعمل في صمت ، من خلال عزيمة قادرة ونفس مشرقة صافية ، وقلب متقبل للنقد ، وروح تسمو على الخلافات والمعارك والخصومات ، ولـه الى ذلك كله اسمه شاعر بدأ حياته بالالحان والغنـاء وليعذرني صديقي اذا تجاوزت هذه المرحلة التي تحتـاج الى دراسة خاصة ، فقد كان صاحبنا وهو في سـن العشرين شاعرا جهيرا يرد اندية الادب وصالونـات السياسة وكان الى ذلك كله « شاعر الاهرام » وله شعر في الحب جميل ورائع ، وله دواوين متعددة بعضها مطبوع وبعضها لم يطبـع .

وما زلت اذكر انني كنت احفظ له شعرا وانا فـي سن السابعةعشرة يقول في مطلعه : « يا كثيرا في منامي »

وما زلت اذكر كيف احتفى به الاهرام عندما سافر الى اوروبا ليتم تعليمه في انجلترا ، وكيف ذهب المرحوم شيخ العروبة « احمد زكي باشا » يودعه على المحطـة ، وما زلت اذكر كيف اوصاه حين قال له : حـافظ فـي رحلتك على ثلاث : مصريتك وعروبتك واسلامك .

واعتقد ان صديقنا ما زال محافظا على هذه الوصية خلال رحلة الحياة الشاقة ، وما زال صديقنا منتجا خصب الانتاج ، وما زلنا نتطلع الى لقاءات اخرى نتحدث فيهـا عن اثاره ومؤلفاته .

وبعد فارجو ان اكون قد صدقت حين قلت ان كتابا واحدا لا يمثل الكاتب ، اي كاتب ، تمثيلا صحيحا وانـه لا بد من عرض كامل لاعمال كل كاتب عند عرض أي عمل مـن اعماله .

القاهرة — انور الجندي

طريق الخيبة

صفاء الحيدري

بغداد ـ العراق



كان اللقاء
حلوا كشمس في الشتاء
فاعذوذبت بفمي اناشيد اشتهاء
دخلت حياتي عنوة ، ودخلت عالمها المضاء
كانت مسارح ليلها حمراء بحاء الشذاء
فبنيت جسرا بين فكرينا هباء
ما كان ثمة من رجاء

واطل ثالثنا القمر
يوما بوجه من حجر
كانت كواكبه تحدق في حذر
كعيون صبيان الفجر
فارتد طرفي للصفر
فرايت في ضوء القمر
اطلال تلك مدينتي كقبور كوكب اندثر
لم يبق منها من اثر
الا انـا
ومدى النظر
تمتد صحراء الضجر
ظمأ ، وموت منتظر
ومحاجر
مهما تزاحم بالصور
ستظل تهطل كالمطر
في ذلك الليل العميق وراء اقبية البصر
توقا لخيبات اخر
وهوى جديد لا يذر
فاس كاسواط الضجر

وعلى طريق اللالقاء
ذهبت ، وعدت ، اجرر القدمين ، انزف كبرياء
وتنفست رئتي هواء
وتصاعدت بعض الدماء
لفمي
.... لوجهي في عشاء
فسمعت في صمتي بصحوة انتهاء
صوتا باعماقي ، نداء
كخفوق اجنحة الفراشة في المساء
عش ما تشاء
وانس النساء

عادت معه وهي مرهقة .. يحوطها بيديه خشية ان تتهاوى على الارض، وراسها مال على صدره .. لا تقاوم ذلك التعب الذي حل بها .. كان الوقت متأخراً من الليل .. عندما طرق « مراد » باب الشقة وهو يساند « سعاد » ..

وفتح الباب ..

كان في استقبالهما .. والدها .. ووالدتها .. واشقاؤها الصغار « وصلاح » — خطيبها — وامه ..

وتسمرت نظراتهم جميعا عليهما وهما في تلك الحالة ، علاهم الوجوم .. وكان المشهد قد الجمهم لانهم لم يتوقعوه ابدا ..

وتهاوت «سعاد» على اقرب مقعد في البهو .. واخذتها امها بين ذراعيها حتى توسدت صدرها ..

واستاذن « مراد » منصرفا ..

ولم يودعه احد من الحاضرين .. بل شيعوه جميعا بنظرات مملوءة بالتساؤل والحيرة والشك ..

ولما هبط الدرج .. عاد والد « سعاد » يسالها في حدة عما حدث لها والكل يتطلع في لهفة الى اجابتها وكيف تعرفت على « مراد » وهو معروف لدى الجميع بانه ذو اخلاق سيئة .. مما لوحظ عليه من اهل الحي من النساء اللائي يفدن الى بيته كل ليلة ليقضي معهن ليالي حمراء ...

وقالت « سعاد » بصوت خافت متقطع النبرات :

— كنت عند « محاسن » صديقتي التي تسكن في نفس المبنى الذي يسكن فيه « مراد » ولما قضيت عندها وقتا طويلا انصرفت عائدة الى هنا .. وبينما كنت انزل الدرج .. فاجأتني الحالة التي تنتابني بين حين وحين ذلك الصداع الحاد وذلك الدوار .. فارتعشت خطواتي .. وخارت قواي قبل نهاية الدرج .. وانزلقت قدماي .. وسقطت ولست ادري بعد ذلك على وجه التحديد .. ماذا حدث لي ..

الا عندما استيقظت من غفوتي .. وطفت بنظراتي .. فوجدت نفسي داخل شقة « مراد » سالت نفسي كيف اتيت الى هنا .. هل حدث لي شيء .. هل مسني مكروه .. ثم بكيت .. بكيت بغزارة ..

وقاطع « صلاح » حديثها قائلا :

— الم يسعفك احد من الجيران سواه ..

— قلت لا اعلم ما حدث لي .. بالضبط ..

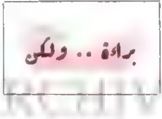
وعاود سؤاله وهو يضغط بشدة على اسنانه في غيظ :

— كيف ذلك .. كيف ؟؟

واستطرد والدها قائلا والدموع تملأ عينيه وبوادر القلق على ملامحه :

— اكملي روايتك .. اكملي ..

— لم يعد لروايتي تكملة سوى



بقلم رستم كيلاني

ما قلته ..

وعاود والدها الحديث قائلابصوت مرتفع :

— قولي الحقيقة .. ماذا حدث بينك وبين « مراد » ..

وفي استنكار بالغ اجابته :

— ماذا تقصد ..

فقاطع « صلاح » الحديث بقوله :

— انت تعرفين ما يقصده والدك .. اتنكرين ما فعله « مراد » معك ؟

— آخر شيء افكر فيه انك يا «صلاح» لا تصدقني ولا تثق في .. اقسم لك بانه لم يحدث شيء بيني وبين « مراد » .. بل كان في منتهى الاخلاق معي .. نعم انتابتني قشعريرة في بادىء الامر .. فقد حامت الظنون حول ذهني عندما رايته امامي ..

وارتفع صوت ام «صلاح» قائلة :

— كيف تحكمين عليه بالبراءة وقد كنت في دنيا اخرى .. كما تقولين ..

واطرقت « سعاد » برهة ثم قالت :

— يعلم الله كل شيء ..

وصمتت « سعاد » كانما ارهق نفسها كل هذا الحديث .. ونظرت الى نفسها كانما هي متهمة في ساحة القضاء دون اتهام ..

وانتقلت الى غرفتها .. ورقدت على فراشها ..

وفي اليوم التالي ..

جاء « صلاح » مصطحبا معه طبيبه الخاص للكشف عن علة « سعاد » .. وبعد انتهاء الكشف .. القى الطبيب بين جدران البيت قنبلة زلزلت اركانه .. ان سعاد لم تعد عذراء ..

وفوجىء الجميع بذلك ..

وارتسمت على وجوههم الدهشة ..

وكاد الاب ان يهوي على الارض ..

وضربت الام على صدرها في جزع كمن فقدت ابنتها الى الابد في كارثة ..

وانسحب في سكون « صلاح » وطبيبه ..

وظل الاب بين مد وجزر .. كاد ان يضغط على عنق «سعاد» ويذهب الى مراد ليهشم راسه ..

وعندما علمت « سعاد » بالحقيقة المؤلمة التي هبطت عليها كالصاعقة .. اجهشت بالبكاء الحار .. وارتفعت درجة حرارتها .. واصابتها حمى شديدة حتى ظلت على اثرها ثلاثة اسابيع طريحة الفراش لا تغادره تهذي بكلمات غير مفهومة .

ولاحظت « سعاد » عندما تماثلت الى الشفاء أن « صلاح » طوال مدة مرضها ومنذ معرفة هذه الكارثة قد انقطع عن الحضور ..

حتى جاء ذلك اليوم التي حضرت



فيه امه لتفسخ الخطوبة ..

وانتهى كل ما كان بين « سعاد » « وصلاح » .. لقد انقطع الخيط الذي كان يربطهما .. وانقطع معه امل « سعاد » في مغادرة هذا المنزل الذي انقلب جحيما ..

وظلت « سعاد » تعيش في عذاب مرير في البيت .. اصبح والدها لا يطيق رؤيتها أو النظر اليها .. واحست بعد تلك الافعال انها تعيش في قفص من حديد ..

وبات العداء بينها وبين والدها سافرا .. يكرهها .. ويمقتها .. وتمقته .. كلاهما يعمل جهده على الابتعاد عن الاخر .. ويتحاشى الالتقاء في حديث .. او مجلس .. او مجردالوجود في اي مكان واحد .

وكانت تتمتم بين حين واخر بصوت مخنوق بالبكاء :

— الى متى يا الهي اظل هكذا فريسة للقلق والاضطراب .. انني لا ادري كيف اتخلص من حياتي التي يتخللها الياس والحرمان .

فانا اتعذب بقسوة بالغة .. اتعذب بل انا العذابعينه .. ولكنني لا استطيع ان اتكلم فمتى تريحني من هذا الصراع المرير .. وذلك التفكير الذي يكاد يحطم راسي .. يا الهي .. متى .. ؟؟

★

اجري التحقيق امام وكيل النيابة في الشكوى المقدمة من والد « سعاد » في اتهام «مراد» بالاعتداء على ابنته ..

وامر وكيل النيابة احالة «سعاد» للطبيب الشرعي ..

وبعد ايام .. صرح وكيل النيابة امام « مراد » و « سعاد » ووالدها .. بعد قراءة تقرير الطبيب الشرعي .. بأنه ليس هناك اي اعتداء تم بين « مراد » و « سعاد » حتى او مجرد الشك في حدوثه .. بل كل ما حدث ان عذريتها قد تمزقت نتيجة سقوطها من مكان مرتفع ..

ولم يصدق والد « سعاد » هذا الا بعد أن قرا بنفسه التقرير للتاكد مرات عديدة .. وبيد مرتعشة طواه في جيبه كدليل ثابت لشرف ابنته .. واعتذر لـ « مراد » وتنازل عن شكواه ..

وعلت ابتسامة عريضة على وجه والد « سعاد » وكان عبئا ثقيلا رفع عن كاهله .. واخذ ابنته بين احضانه لاول مرة بعد تلك الفترة التي مرت عليها كسحابة سوداء قاتمة .. وقبلها وقد بللت دموعه خديها وهو يقول :

— شكرا لك يا ربي .. لقدشعرت



رستم كيلاني

●

الان براحة تغمرني .. وعودة كرامتي لقد رفعت رأسي يا «سعاد» حفظك الله يا ابنتي ..

★

صادف والد « سعاد » « صلاح » خطيب ابنته السابق .. وبلا شعور حدثه الاب عن الحقيقة التي تكشفت له وابرز له شهادة الطبيب الشرعي كدليل ثابت لبراءة ابنته من الوصمة التي كانت تحوطها ..

ولم يتحدث « صلاح » بل اطرق .. وعلاه الوجوم ..

جاء « صلاح » وامه الى بيت « سعاد » في اليوم التالي طالبا يدها من جديد ولاعطائه فرصة جديدة لاصلاح الخطا ..

وهمس الى « سعاد » محاولا ان يستميلها اليه :

— كان يجب يا « سعاد » ان أظل الى جانبك وان أرعاك بحبي ، ولكن كنتمتسرعا في حكمي .. لقددفعت الثمن غاليا .. لانني فقدت حنانك وحبك .. انني في حاجة اليك .. فلا تضنين علي ..

ولم تهزها كلماته .. الهامسة .. ولم يذب جمودها ..

واطرقت « سعاد » برهة ثم تنهدت قائلة بعد ان احست انها او وافقت على التحام الخيط الذي انقطع بينها وبينه سيكون ذلك امتهانا لكبريائها وكرامتها .. فقد عاشت وحدها محنة قاسية تعلمت فيها الكثير ..

— يا « صلاح » لقد اتخذت قراري الاخير ..

وفي تلهف قال ؟

— وما هو ذلك القرار ..

— آسفة .. لقد انتهى كل شيء ، ولم تعد ذلك الانسان الذي يملأ حياتي .. ويسعد خاطري .. فانت الذي وضعت هذه النهاية بيدك قبل التحقق من براءتي .. وعدم تريثك في أمر مشكلتي .. وعلى كل فلن يتمنى قلبي لك سوى كل سعادة مع من ستختارها هذا ما اتمناه لك ..

وسكتت ، وانتفضت واقفة وقد اخفت وجهها في المنديل .. واسرعت الى غرفتها .. وارتمت على فراشها .. واتكفات على وجهها تبكي بحرقة .

وحينما لحقت بها امها لتسالها عن تسرعها فيما ردت به على خطيبها .. قالت بصوت مخنوق :

— يا اماه لقد ظهرت براءتي بيد السماء .. ولم تكن صورتي بريئة في مرآة نفسه .. وهذا حسبي .. وهذا قراري ..

القاهرة — رستم كيلاني

أحمد سامح الخالدي ـ زهير الكرمي

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ ـ احمد سامح الخالدي

الشعار الذي حمله احمد سامح الخالدي وبشر به طيلة عمله في القطاع العام : « سقوط الانسان ليس فشلا .. وانما الفشل ان يبقى حيث سقط ! »

ولد في بيت المقدس عام ١٨٩٥ وتلقى دراسته الاولية في كولونية الاميركان وفي مدرسة المطران بالقدس ودرس الصيدلة في الجامعة الاميركية ببيروت ونال شهادتها سنة ١٩١٧ وفي اعقاب الحرب العالمية الاولى خدم في الجيش العثماني ، وبعد ان وقعت فلسطين في قبضة الانتداب البريطاني عاد الى فلسطين واعتزل الصيدلة وعمل مفتشا في ادارة المعارف العامة لواءي يافا وغزة سنة ١٩٢٠ واتكفا على طلب العلم فنال درجة استاذ في التربية بالاضافة الى درجة استاذ في العلوم التي احرزها من الجامعة الاميركية .

وتقديرا لكفاءته نقل مديرا مساعدا لمدير المعارف العام ، وفي ربيع ١٩٢٥ وصل اللورد بلفور صاحب الوعد المشؤوم الى القدس ليدشن الجامعة العبرية فاضربت المدارس وكانت « دار المعلمين » في طليعتها ، فغضب الدكتور خليل طوطح مديرها عهد ذاك الطرف عن تهدئة الاضراب واستئناف الدراسة فاستقال من منصبه واختارت ادارة المعارف العامة احمد سامح الخالدي مديرا لتلك الدار ومنحته بعض الصلاحيات والامتيازات واقرت اقتراحا تقدم به للمسؤولين هو تسمية ذلك المعهد بـ « الكلية العربية » ، وفي عهده تخرج عشرات من الشبان العرب المثقفين .

ولم ينسه منصبه الرفيع هذا ابناء الشهداء الذين فقدوا آباءهم دفاعا عن فلسطين ... فالف لجنة اسماها « لجنة اليتيم العربية العامة » (١) وانشا مع اعضائها معهد ابناء الشهداء في دير عمرو (غربي القدس) وجمع التبرعات لتعليم اولئك الايتام .

وبعد النكبة المروعة الاولى التي عصفت بفلسطين سنة ١٩٤٨ نزح مع قرينته الاديبة السيدة عنبرة سلام الخالدي وابنائه الى لبنان وكرس حياته لمساعدة اللاجئين الفلسطينيين ورعاية شؤون تعليم ابنائهم .

وفي ٢٧ ـ ٩ ـ ١٩٥١ اصيب بضعف في قلبه ، وقضى نحبه بالسكتة القلبية في مصيفه ببيتمري بلبنان .

من آثاره القلمية : اثرى المرحوم احمد سامح الخالدي حقل التربية والتعليم وخزانة التاريخ العربي بمؤلفات نفيسة توخى فيها التوجيه والارشاد ، وعرض المفاخر التي فاض بها التاريخ العربي .

وفيما يلي اسماء الكتب التي صنفها المرحوم الخالدي :

١ ـ ادارة الصفوف ـ طبع سنة ١٩٢٨ و ١٩٤٣ .
٢ ـ اركان التدريس ـ طبع سنة ١٩٣٤ .
٣ ـ انظمة التعليم (جزآن) طبع الاول سنة ١٩٣٣ والثاني سنة ١٩٣٥ .
٤ ـ الحياة العقلية (مترجم) تاليف وود ورث
٥ ـ طرق التدريس المثلى ـ طبع سنة ١٩٣٧ .
٦ ـ رسالة اختبار الذكاء .
٧ ـ الطريقة المنتسورية في التربية والتعليم ـ تاليف ي. ج. هولز
٨ ـ أهل العلم بين مصر وفلسطين ـ طبع سنة ١٩٤٦
٩ ـ نظام التعليم في العهد العثماني . (تذكر هذه الرسالة اسماء العلماء الفلسطينيين الذين تعلموا في مصر واستوطنوها او توفوا فيها ، والعلماء المصريين الذين سكنوا بيت المقدس او الخليل او درسوا في معاهد فلسطين وكانت لهم بها صلة علمية) وقد كان مصدر المؤلف الرئيسي كتاب « الانس الجليل » لمؤلفه مجير الدين الحنبلي المقدسي ثم « شذرات الذهب » لابن العماد الحنبلي وغيرها . وتبين هذه الرسالة ان الصلة العلمية بين مصر وفلسطين لم تنقطع منذ القرن الاول الهجري حتى يومنا هذا .
١٠ ـ رجال الحكم والادارة في فلسطين (من عهد الخلفاء الراشدين الى القرن الرابع عشر الهجري) .
١١ ـ العرب والحضارة الحديثة ـ طبع سنة ١٩٥١
١٢ ـ المعاهد المصرية في بيت المقدس ـ طبع سنة ١٩٤٦ .
١٣ ـ رحلات « ديار الشام » ـ طبع سنة ١٩٤٦ .
١٤ ـ أهل العلم والحكم في ريف فلسطين ـ طبع سنة ١٩٦٨ .

والمخطوطات التي اخرجها الخالدي واحياها بالنشر هي :

١ ـ رسالة ترغيب الانام في سكنى الشام ،

---

(١) تالفت لجنة اليتيم العربية من السادة : احمد سامح الخالدي (رئيسا) الدكتور يوسف هيكل (سكرتيرا) رجائي الحسيني (امينا للصندوق) شفيق منصور (نائبا لامين الصندوق) ميشيل ابكاريوس ، شبلي الجمل ، احمد طوقان ، احمد خليفة ، احمد القاسم ، ورفيق بيضون (اعضاء) .

لعزالدين السلمي ، طبع سنة ١٩٤٠ .
٢ ـ فضائل بيت المقدس ، للواسطي .
٣ ـ مثير الغرام بفضائل القدس والشام ، لابي محمود المقدسي ، طبع سنة ١٩٤٥ .
٤ ـ الاعلام بفضائل الشام ، للمنيني ، طبع سنة ١٩٤٦ . (اضاف اليه ملحقا في تراجم الصحابة والتابعين الذين نسبوا الى الشام أو نزلوا بها او استشهدوا فيها)
٥ ـ اقنعة الحب (مترجم) تاليف الدكتور شتيكل طبع سنة ١٩٤٦ .
ومن مؤلفاته المخطوطة :
١ ـ تاريخ المعاهد الاسلامية (في ثمانية مجلدات تناول فيها تطور الثقافة عند المسلمين والعرب في سائر معاهدهم مما انشاوه في الشرق والغرب) .
٢ ـ الاردن في التاريخ الاسلامي .
٣ ـ تاريخ بيت المقدس

نموذج من نثره : « لم يبق هناك من يناقش في ان اللغة الوطنية يجب أن تصبح لغة التعليم في جميع مراحله من بستان الاطفال حتى الجامعة ، وليس من امة محاجة الى هذه العقيدة كامتنا التي هي في بدء نهضتها الان ، ولتي لم تتح لها الظروف في القرون الاخيرة ان تسيطر على مقدرات ابنائها من الوجهة التعليمية . ولا مشاحة في ان كل اصلاح اجتماعي يجب ان يبني علي اساس هذا المبدا . فالامة لا تحيا الا بحياة لغتها وآدابها وثقافتها ، أما ما يقال عن لعقبات في هذا الصدد فتذليله اصبح ممكنا فيما يتعلق بالتعليمين الابتدائي والثانوي وميندا العالي . ولا عبرة بكلام من يدعي غير ذلك او ينتحل الواهي من الاعذار . والثابت المقرر انه لا يمكن للامة ان يستقيم تفكيرها ، وان تتبوأ مكانتها بين الامم الا اذا تمكنت من التعبير عن أفكارها وعواطفها بلغتها الوطنية .

قال ليبنتز احد دعاة التعليم باللغة الوطنية في المانيا وقد عاش هذا الفيلسوف في اواخر القرن السابع عشر ، منتقدا استعمال اللغة اللاتينية كلغة تدريس : « أن نجاح الهيئة الاجتماعية لا يتم الا اذا اصبحت اللغة الوطنية لا اللغة اللاتينية لغة التدريس ، ذلك لان الاولى هي ناقلة الفكر الى الزمن الحاضر في حين ان الثانية هي ناقلة الفكر التقليدي . ولما اهمل العلماء لغتهم الوطنية اضطروا الى البحث في امور تافهة فكتبوا والفوا ولكن كتاباتهم لم يتجاوز اثرها رفوف المكتبات ، أما الامة بسوادها فقد بقيت منعزلة عن هذه الجهود ولابحاث ، فاللغة الوطنية الراقية الحية النامية هي كالزجاج المصقول صقلا فائقا ، تزيد في حدة الذهن ، وتجعل الفكر واضحا شفافا » .

والعلاقة بين المانيا في ذلك القرن وحالتنا الحاضرة بينة ظاهرة ، وفي هذا القول اعظم جواب لمن لا يؤمنون باهمية التعليم في اللغة الوطنية .

ليس من الممكن وقد تأخر الشرق عن الغرب في مضمار المدنية ، أن يتمكن الطالب الشرقي من متابعة التقدم العلمي اذا لم يعرف لغة اجنبية حية الى جانب لغته القومية ، من اجل هذا يجب على المدارس ان تعنى بتدريس ما لا يقل عن لغة اجنبية واحدة ، ليستطيع الطالب أن يسد بواسطتها النقص العلمي والفني في لغته الوطنية ، على ان المهم ليس قدرته على التكلم بتلك اللغة وانما المهم ان يصبح قادرا على فهم تلك اللغة والتلذذ بقراءة كتب العلم والادب فيها ، اما التخاطب والكتابة فلهما الشأن الثاني . والمهم ان لا تصبح اللغة الاجنبية فعالة في التخاطب والكتابة والقراءة فتتأثر اللغة الوطنية ويهمل شانها ، وهو ما يجب على المدارس أن تتحاشاه .

لقد اجمعت الامم الراقية على أن التدريس في المدرسة الثانوية يجب ان يكون عاما أي أن يشتمل الى درجة معقولة على تمرين جميع القوى وتنشئتها وان لا يقتصر في ذلك على ناحية واحدة سواء اكان ذلك في العلوم المجردة ام في العلوم التطبيقية ام في الاداب ام في ذلك النوع من التعليم الذي يرمي الى اعداد الطالب للدخول في الاعمال الكتابية او ما يشبهها من الاعمال البسيطة ، بعد ان يكون قد جهز بشيء من المعرفة تتعلق بما سيقوم به بعد تخرجه من المدرسة .

وينبغي أن تضع المدرسة الثانوية امامها هدفا واضحا هو تنشئة وتمرين جميع القوى في جميع انواع التربية المختلفة . وتفشل المدرسة اذا سلحت طلابها بتربية عامة صحيحة واخرجتهم وقد اهملت قوة او ناحية من قواهم ، او انمت قوة من هذه القوى على الاخرى ، سواء اعدتهم للحياة ام للدراسة العالية .

ان التخصص في اية ناحية معينة يجب أن لا يتم الا بعد ان يصل التعليم العام الى مستوى تتشبث معه في الطالب ملكة تمرين جميع هذه القوى بحيث يحصل الفرد على اساس معين في الحياة يتعرف بواسطته الى كيفية تركيب العالم الطبيعي وما يشمل من قوانين كذلك على صحة استعمال الفكر والقوى ، وعلى مقدرة عملية تساعده على البدء بمعالجة شؤون الحياة المادية والمعنوية . قال البروفسور كوس الالماني : « ان الغرض من المدرسة الثانوية ينحصر فيما يأتي :

١ ـ تنشئة المسؤولية المدنية الاجتماعية الخلقية في الطالب .
٢ ـ اشتراك الطالب في تقدير البديعيات والاستفادة من اوقات الراحة والفراغ .
٣ ـ حصول الطالب على كفاءة في المهنة التي يستعد الدخول فيها (يشمل ذلك استعداده للمعاهد العالية) .
٤ ـ الكفاءة الجسدية .

واما عمل المدرسة الثانوية فيشتمل على ما يأتي :
١ ـ فتح الباب للاذكياء للدخول في التعليم الثانوي بدون النظر الى طبقة الطالب الاجتماعية .

٣ ـ اهتمام المدرسة بما بين الطلاب من الفروق في الذكاء والقابلية والمقدرة .

٤ ـ اهتمام المدرسة بدور الشباب وما فيه من اخطار وما له من خصائص .

٥ ـ تجهيز الطالب بالمعرفة والمهارة في طرق التفكير والعمل الاساسية .

٦ ـ مساعدة الطالب على الاستفادة مما تدرب عليه في المدرسة ، بنقله الى الحياة .

هذه هي اهم اغراض المدرسة الثانوية وهي ما يجب ان ترمي اليه المدرسة الراقية الحديثة في اخراج الشبان المهذبين المثقفين المستعدين للدخول في معترك الحياة وقد جهزوا بتدريب يساعدهم على تفهمها كما هي لا كما تظهر ، اذ ليست الغاية من الحياة ان تصبح جميعا محامين او اطباء او فلاسفة او معلمين او علماء ، ولسنا متساوين في قوانا الموروثة ، ولكننا خلقنا جميعا لحياة فيها واجبات اجتماعية عظيمة الخطورة ، وكل منا مسؤول عما يصدر عنه من التأثير الشخصي على غيره ، فالمثقف المهذب من يستعد لتحمل هذه المسئولية العظمى ، والويل لمن لا يقدر خطورتها فان مثله مثل الحشرات الضارة السامة ، التي لا تشعر بما تلحقه من الاذى والضرر في البيئة التي تنزل فيها » .

٢ ـ زهير الكرمي

الحكمة التي آمن بها « زهير » وتغنى بسمو مغزاها كفلسطيني فقد وطنه ، قول المهاتما (غاندي) :

« ليس امامكم يا بني قومي الا واحدا من اثنين : اما ان تناضلوا في سبيل التحرير والمجد ، فتحيوا مخلدين عبر الاجيال والتاريخ .. او تموتوا ميتة العبيد الاذلاء ! » .

ولد « زهير » في دمشق سنة ١٩٢١ ، وبحكم عمل المرحوم والده في سلك التعليم توزعت دراسته الابتدائية بين عمان والقدس وغزة والخليل . وفي سنة ١٩٣٥ دخل الكلية العربية بالقدس ، ونظرا للاضراب العام الذي تحدى به عرب فلسطين الصهيونية والاستعمار احتجاجا على بيع الاراضي وتدفق الهجرة اليهودية مشروعة وغير مشروعة .. انضم « زهير » الى كلية النجاح الوطنية بنابلس ونال شهادتها الثانوية سنة ١٩٣٧ وقصد الجامعة الاميركية في بيروت وعاد منها الى فلسطين بشهادة بكلوريوس علوم سنة ١٩٤١ وعين استاذا للعلوم في ثانوية طولكرم وامضى فيها ثلاث سنوات وفي سنة ١٩٤٤ قررت ادارة المعارف العامة نقله الى بيت المقدس رئيسا للقسم العربي للامتحانات العامة .

وفي سنة ١٩٤٥ اوفدته ادارة المعارف العامة بمثة الى القاهرة لدراسة المصطلحات العربية العلمية وفي سنة ١٩٤٦ قصد لندن مبعوثا لدراسة علم الاحياء في « الكلية الامبراطورية » ، وكانت دراسته فيها معادلة لشهادة الماجستير . وفي سنة ١٩٤٨ عاد الى فلسطين بعد مؤتمر الطلبة العرب المنعقد في لندن ، وفيه اتخذ الطلبة العرب بالاجماع قرارا ينص على تعليق دراستهم الجامعية والعودة الى حلبة الجهاد في فلسطين لكن هذا القرار لم ينفذه احد سواه ! .

وفي منطقة طولكرم عمل « زهير » مع السيدات العربيات واسس معهن « مستشفى الجهاد » ، وعقب افتتاح المدارس سنة ١٩٤٩ كلفته وزارة التربية والتعليم الاردنية التدريس في كلية الحسين بطولكرم « مدرسة خضوري الزراعية سابقا » واعطاء حصص اضافية باللغة الانكليزية والعلوم في ثانوية طولكرم وبقي يعمل في حقل التعليم هناك الى سنة ١٩٥١ اذ زار الاردن المربي المرحوم درويش المقدادي ، وكان عهد ذاك مديرا عاما لمعارف الكويت ، فكلفه العمل في معارف الكويت لتأسيس تدريس العلوم فيها ، اذ لم تكن العلوم تدرس هناك قبل انضمامه الى جهاز التعليم الكويتي ، وهناك شارك في الحياة الادبية والرياضية والاجتماعية والثقافية ، وكانت وقتئذ غضة لينة ... وفي سنة ١٩٦١ اصبح مفتشا للعلوم وفي سنة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ عين رئيسا لمفتشي العلوم في وزارة التربية والتعليم بالكويت .

وفي هذا القطر العربي الناهض لم يبخل « زهير » بعلمه على ابناء جنسه فاذاع عشرات الاحاديث العلمية والادبية من الاذاعة الكويتية واجرى المسؤلون معه لقاءات في التلفزيون ، وكان له برنامج تلفزيوني لتبسيط العلوم لعامة الشعب اسماه « العلم في حياتنا » ، ومؤخرا استبدل هذا العنوان باخر هو « العلم والحياة » وله برنامج تلفزيوني آخر بعنوان « ندوة الرأي » وهو عبارة عن بحث قضية من قضايا الساعة يشترك فيه ثلاثة او اربعة اشخاص مثقفين يبدون فيه آراءهم بحرية مجردة !

آثاره القلمية : الف الاستاذ الكرمي ستة وثلاثين كتابا مدرسيا في العلوم والصحة لمختلف مراحل التدريس ودور المعلمين في الكويت وقد عرفنا منها :

١ ـ علم الحياة ـ في ٣ أجزاء
٢ ـ العلوم العامة ـ في ٩ أجزاء
٣ ـ العلوم العامة لدور المعلمين ـ في ٤ أجزاء
٤ ـ الكيمياء ـ في ٣ أجزاء
٥ ـ الفيزياء ـ في ٣ أجزاء
٦ ـ الجيولوجيا ـ في ٣ أجزاء .
٧ ـ مرجع اليونسكو في تعليم الجغرافيا ـ صنفه بطلب من اللجنة المركزية للجان الوطنية لليونسكو .

ومن الكتب العلمية التي صنفها ولم يدفعها بعد للطباعة :

١ ـ مرجع تعليم العلوم

٢ ـ العلم في حياتنا
٣ ـ أزمة تدريس العلوم في العالم العربي

نموذج من نثره : « قلما يعي المربون في العالم العربي انهم يعيشون ازمة صارخة تتعلق بمفهومهم العلم واسلوب تدريس العلوم لابنائهم اليوم ـ الذين هم رجال القرن الحادي والعشرين ، وقلما يشعر هؤلاء المربون بأن الازمة من الضخامة والعمق بحيث انها تهدد كيان العالم العربي ومستقبله. وفي غياب هؤلاء المربين عن مسئولياتهم يتركون المجال رحبا لمحاولات العاطفيين ملء الفراغ وايهام رجال اليوم بأن لا سبيل للحاق بالركب العالمي هو في تبني مبادىء معينة واعتماد فلسفات اجتماعية مقتبسة .

وفي هذا العصر العلمي سيطر العلم على جميع مناحي الحياة وتغلغل في صميم تصرفات الناس ـ قادة وشعوبا ـ حتى انه يبدو من العسير تصور الحياة الانسانية كما نعرفها بدون العلم وتطبيقاته .

ولعل في سيطرة العلم في هذا العصر على فلسفة حياة بعض الامم السر في تقسيم الدول الى متخلفة او نامية ، ومتقدمة ، اذ ليس صحيحا ان ثراء الامة او وفرة مواردها الطبيعية هي الوسيلة لرقي الامة وتقدمها في ركب الحضارة كما هو واضح من كثير من الامثلة في منطقة الشرق الاوسط والعالم بأسره ، وهذا الاتجاه الخاطىء هو ما يعتنقه رجال الاقتصاد في العالم العربي .. ووجهة نظرهم هذه مع الاسف هي المسيطرة على مخططات التنمية بشكل عام . ونحن لا ننكر ان الوسائل المادية ضرورية وهامة ولكنها لا تعدو كونها وسيلة مساعدة على التنمية والتطور وهي وحدها لا تستطيع تحقيق النمو والتطور الى مرحلة التقدم .

وقد تنبهت هيئة الامم المتحدة الى اهمية العلم في تقريب الهوة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة فعمدت لاول مرة في التاريخ الى ايلاء هذا الموضوع عنايتها وجعلت العقد الحالي من سنة ١٩٦١ ـ ١٩٧١ زمن التركيز عليه واسمته عقد التنمية والتطور وفي شباط (فبراير) عام ١٩٦٣ دعت الى اجتماع دولي هام في جنيف عقد لاول مرة وجمعت فيه علماء العالم المتقدم والمتخلف او النامي مع المسئولين عن التنمية في دول العالم) (وقد اربى عدد العلماء فيه على ١٦٠٠ عالم) وتباحث الجميع بالصراحة العلمية المعهودة ، في الوسائل والسبل الكفيلة بتنمية وتطوير الدول المتخلفة او النامية وخرج المؤتمر بتوصيات عدة لعل اهمها ان الوسيلة الاولى الواجب الاخذ بها لتنمية وتطوير الدول المتخلفة هي العلم .. ان من الواضح ان الدول المتقدمة لم تصل الى هذا الطور الا بالعلم واتخاذه اساسا لفلسفة حياتها وما يتصل بذلك من تفكير علمي وبحث علمي وتطبيق علمي .

ومفهوم « العلم » غير واضح في اذهان الكثيرين وبخاصة المربين بما فيهم الذين يقومون فعلا بتعليم العلوم في المراحل المدرسية المختلفة . وينتج عن ذلك تعذر الافادة من العلم كاول واقوى وسيلة للتطور والنمو . فالكثير من المثقفين يرى العلم في تطبيقاته او فيما يعرف بالتكنولوجيا ، والكثير من المربين يرى العلم في حقائق ينبغي على الطلاب حفظها واستظهارها وفي خير الحالات فهمها باستخدام الوسائل المعينة واكساب العملية صفة تربوية كاذبة .

ونحن في العالم العربي ، نعاني من غموض مفهوم العلم ونرى أثر ذلك في التخبط والارتجال في المناهج والكتب وطرق التعليم والتدريس ، كما نراه في ضعف البحث العلمي وقلة العلماء على المستوى العالمي وضحالة انتاجهم العلمي .

ولعل ذلك راجع في بعض اسبابه ، الى ان العالم المتقدم عانى ثورة علمية وتكنولوجية بكل ما في كلمة ثورة من معنى ، وبكل ما يصاحبها من قلب لكثير من المفاهيم وقواعد التفكير واساليب العيش ، بينما نحن نريدها عملية انتقال هينة سلسة هادئة . والثورة العلمية والتكنولوجية أصعب من الثورة الاجتماعية او السياسية لان ميدانها العقل واساليب التفكير لا العلاقة الانسانية وقوانينها ولانها لا تعتمد القوة ولا الاكراه سلاحا او سبيلا.

وقد حاولت معظم الدول المتخلفة او النامية تقليد مظاهر هذه الثورة باقتباس نظم المؤسسات العلمية التي نجمت عن الثورة العلمية والتكنولوجية في العالم المتقدم ، وتقليد عمليات البحث العلمي فكانت النتيجة اننا نرى في معظم دول العالم تشابها في الشكل واختلافا في الجوهر وتماثلا في الهيكل العام وتباينا في المحتوى والمضمون . وصار التركيز على الشكل سبيلا لايهام النفس باننا سائرون على الدرب .. وعلى هذا نرى بلادنا العربية مجالس عليا للبحث العلمي متعددة ، دون ان نرى اثرا للبحث العلمي على المستوى العالمي . كما نرى الجهود تبذل والاموال تنفق في سبيل ايفاد البعوث واعداد الباحثين العلميين حتى اذا ما عاد هؤلاء ، وفيهم الجيدون، لم يجدوا مجالا لممارسة البحث العلمي ولم يجدوا رعاية . وتكون النتيجة أن يقنع الواحد منهم بما قسم له او يبحث له عن عمل يكون غالبا غير ذي علاقة باعداده . وفي حالات يفضل الهجرة الى المكان الذي تدرب فيه مسهما بذلك في زيادة ما يسمى بالنزف العقلي عند أمته .

وهناك مظهر اخر تتميز به الدول الشرقية عامة والعربية خاصة ويزيد في حدة المشكلة وضعف الاخذ بالفلسفة العلمية . وهذا المظهر هو حرصنا على أن لا تؤثر الفلسفة العلمية في تقاليدنا ومفاهيمنا المتوارثة . ويتخذ هذا الحرص صورة محاولة جلببة الفلسفة العلمية الحديثة بجلباب من تراثنا ، كما يتخذ في احيان صورة رفض هذه الفلسفة والدعوة الى نبذها والعيش في الماضي . وكلا المحاولتين خطأ يدل على عدم فهمنا فهما

حقيقيا معنى « العلم » و « التكنولوجيا » وأثرهما على الفرد والمجتمع . ونحن في ذلك كمن يحاول ان ينقذ ابنه الغريق دون ان يبتل بالماء .

ان علينا ان نفهم من طبيعة الثورة العلمية ان يكون لها نتائج تؤثر على الفرد والمجتمع فمن نتائجها على الفرد شعوره بالقلق وعدم الاستقرار في هذا العالم نتيجة للتغيرات التي تحدث كل يوم والاكتشافات والاختراعات التي تضطره الى تكييف نفسه لها بشكل مستمر ، ومن نتائجها ايضا فقدان الفرد لاستقلاله بتزايد اعتماده على سلطات معنوية . فالفرد الذي كان في الماضي يذهب لعين ماء القرية ليستقي ، اصبح اليوم يعتمد على سلطة توفر له الماء وقد ينقطع الماء عنه فترة دون ان يكون له في كلتا الحالتين دخل . واصبح الفرد اليوم لا يستطيع ان يحل بعض مشاكله وحده بل عليه ان يعتمد على الجهد الجماعي ـ وهكذا بينما يتمتع بنتاج الجهد الجماعي (كحفظ صحته من المرض) يجد المرء انه بنفسه كفرد قليل القوة والاثر في المجتمع . ومن نتائجها ايضا زعزعة بعض التقاليد الراسخة المتوارثة . وهذا اثر مؤلم في الحياة الاجتماعية نرى اعراضه واضحة في المجتمعات الغربية . ويؤدي على صعيد الفرد الى تحطيم مواسيه النفسية وما يتبع ذلك من انتفاضة على العرف واحساسه بشعور الغربة وعدم التبعية لمجتمعه وأسرته .

هذه بعض النتائج التي يمكن لعتبارها سيئة والتي تنتج عن الاخذ بروح العلم فالتكنولوجيا كفلسفة تفكير وحياة في امة من الامم .

ولكن هذه النتائج « السيئة » يقابلها في ناحية اخرى نتائج طيبة تفوقها اثرا ، فمن طريق روح العلم والتكنولوجيا نستطيع ان نأمل بحياة افضل لغالبية الناس الذين كانت حياتهم من اولها لاخرها سلسلة متصلة من العمل المرهق الدؤوب في سبيل لقمة العيش فقط . ومن هذا الطريق وحده نأمل بصحة افضل وانخفاض في وفيات الاطفال وعمر اطول للجميع . كما نأمل ، نتيجة لما يوفره لنا العلم والتكنولوجيا من وقت واسباب ، بآفاق اوسع من المعرفة والثقافة لكل الناس وقد كانت حتى عصر العلم مقتصرة على نخبة قليلة من المحظوظين ماديا واجتماعيا .

وفوق ذلك ، فان تصارع القوى في العالم قد اخذ العلم والتكنولوجيا سلاحا له ، وبقدر تفوق اي فريق علما وتكنولوجية تنعقد له الغلبة . ولعل نظرة فاحصة للتاريخ ترينا انه في الماضي كانت نتيجة اي صراع تتقرر بقوة الجيش الدافعة التي كانت تولدها الى جانب قوته المادية التقاليد والايمان وحب التضحية . وكثيرا ما نرى نماذج لقلة غلبت كثرة . وفي هذه الحقبة كانت كفة الشرق هي الراجحة غالبا في الصراع من اجل السيطرة . وذلك ان الشرق هو موطن التقاليد والايمان .

ولما بدأت الثورة العلمية والصناعية والتكنولوجية في الغرب ، واخذ بها العرب اسلوب تفكير وفلسفة حياة دخلت في الميدان كسلاح اضافي رجح كفة الغرب ، فبدأت حقبة الاستعمار وواضح انه لولا ان قوة العلم والتكنولوجيا كانت تسند العرب لما استطاع بعدده القليل ان يسيطر على الشرق بروحيته العظيمة واعداده الكبيرة مهما كانت الدوافع الاقتصادية حيوية وهامة بالنسبة له .

وقد رأينا منذ بدء حقبة الاستعمار كيف تلون بأشكال متعددة فقد بدا استعمارا عسكريا ثم تحول الى استعمار سياسي واقتصادي ثم اخذ شكل الاستعمار الاقتصادي والعقائدي ، واليوم يبدو وكأن الاستعمار يلفظ انفاسه في العالم ، غير ان الحقيقة هي انه يمر في فترة تحول من شكل اقتصادي عقائدي الى شكل علمي تكنولوجي . فالدولة المتخلفة بالرغم من مظاهر استقلالها المتكاملة ، تعتمد على دول متقدمة في استيراد كل نتاج العلم والتكنولوجيا وتصدر له بالمقابل نتاجها الزراعي والمدني وتقترض منه . ويتزايد اعتمادها على الدول المتقدمة بتزايد سكانها وحاجاتها مع الزمن الى ان تصبح غير قادرة على العيش دون هذا الاعتماد . فان لم يكن هذا استعمارا اشد من اشكال الاستعمار التي عرفت سابقا ، فماذا يكون ؟ . وليست هذه العلاقة غير المتكافئة بخافية في الدول المتخلفة او النامية ولذا نجد الاقتصاديين يخططون لما يسمونه بالاكتفاء الذاتي ، بتصنيع دولهم .

غير انه لو فحصنا ما يعملون بعين تنظر الى الحاضر والمستقبل في آن واحد لوجدنا خللا كبيرا في هذه المخططات . ذلك انهم يخططون للتصنيع حسب مستوى الصناعة في وقت التخطيط غير آخذين بعين الاعتبار ان العلم يخطو كل يوم خطوات وان تقدم العلم يعني تقدم التكنولوجيا والصناعة . وان صناعة اليوم لن تكون بمستوى الصناعة العالمية غدا . واحب ان اضرب مثلين على ذلك : الاول ـ لنفرض اننا استوردنا مصنعا ما ، وبدأنا ننتج سلعة ضرورية للمواطنين وقمنا بالحماية الجمركية لهذا الانتاج فترة ما . وتمضي السنوات والحال جيد ، ثم يبدأ المواطنون بالشكوى من ان مستوى الانتاج قد هبط في الجودة والمستوى ، وقد يتحملون فترة اخرى بدوافع الوطنية ، ثم ينصرفون عن الانتاج المحلي بوسائل متعددة . فما السر في ذلك ؟ من الحق ان نقول ان الانتاج لم يهبط في معظم الحالات لا في الجودة ولا في المستوى . ولكن المستوى العالمي ارتفع بفضل البحث العلمي المستمر . ومن هذا يتضح ان التصنيع الجاري في البلاد العربية يفتقر الى عنصر البحث العلمي الحيوي له .

ولم يسمع احد بأن اي مصنع في البلاد العربية ملحق به مختبر للبحث العلمي مهمته تحسين الانتاج والكشف عن مجالات انتاج جديدة كما هو الحال في البلاد المتقدمة .

والمثل الثاني من الارجنتين ـ فقد كانت الارجنتين

اطلالة من الشباك

عينـاي عالفتـان بالشـباك — أتـرى علـى جنباتـه القـاك
ان لم ار الوجـه المليح وحسـنه — فعسى تطـل به علي يـسـداك
وهما كزنبقتين فـي راد الضحى — تتالقـان نضـارة كصبـاك
في الحي امشي والفؤاد يدلني — والى حماك يشدني هـواك
واقبل البيت الحبيب بناظري — آو اليـه لانـه مـاواك
سناك لؤلؤتان صاغهما الهوى — كالخاتمين على عقيق لماك
اعطاك ربي خير ما اعطى الورى — من فتنة سبحان من أعطاك
اطلالـة جـودي بهـا يا منيتـي — حتى ولو كانت من الشباك

زحلة ـ لبنان — رياض معلوف

تصدر قطنها الخام وتستورده من الولايات المتحدة قطنا مصنوعا ، الى ان قررت تصنيع القطن في بلادها . فاشترت مصانع فخمة كلفتها مبالغ طائلة وما ان بدأ الانتاج حتى طلع العلم بالقطن الذي لا يكوى فاضطرت الى تبديل جزء من المصنع واضافة جزء آخر بتكاليف بلغت الثلث من تكاليف المصنع كله وذلك حتى تستطيع مجاراة مستوى الانتاج العالمي . ومن يدري فقد يخرج العلم على العالم بتقدم اخر في مجال صناعة القطن يضطرها للتغيير والتبديل .

من كل هذا يتضح انه لا خيار للعالم العربي في خضم هذا الصراع القائم الا ان يتسلح بسلاح العلم الذي ينقصه. فمن ايـن نبـدا ؟؟ .

لقد حاولت كثير من الدول في العالم العربي البدء من حيث انتهت اليه الدول المتقدمة فانشأت مراكز للبحث العلمي واوفدت البعوث للتدريب على البحث العلمي . واقامت وزارات ثم استبدلتها بمجالس عليا لرعاية البحث العلمي وتنسيقه .. الى آخر ما هنالك من مثل هذه الاجراءات .

ومع ان هذه الاجراءات تبدو سليمة ومنطقية الا انها لم تؤد الى النتائج المرجوة ولم تنجح أي من دول العالم العربي في الوصول الى مصاف الدول المتقدمة في ميدان العلم والبحث العلمي لا كما ولا نوعا . وما زالت جميعها معتمدة على الدول المتقدمة اعتماداً علميا يكاد يكون كليا . لا بل ان مستوى البحث العلمي في مهده الطبيعي ـ الجامعة وكليات علومها ـ في هبوط لا ارتفاع ، ونتيجة لذلك تتزايد حاجتنا لايفاد البعوث الى الخارج من جانب واحد ـ جانبنا نحن بدلا من أن تكون تزايدا في تبادل البعثات .

ولو نحن تفحصنا سر الخلل هذا لوجدنا سببا جوهريا واحدا واسبابا ثانوية فرعية متعددة . أما السبب الجوهري فيكمن في سوء اعدادنا لعلمائنا علميا الى حد يجعل من المتعذر عليهم في الغالب القيام بأبحاث علمية مبدعة خلاقة . ومن الاسباب الثانوية الفرعية عدم الاستقرار ، وعدم رعاية الدولة للبحث العلمي وتوفير العيش الرخي للعالم وعدم وعي المجتمع لاهمية عمل العالم في بحثه العلمي .

ان اعداد العلماء للبحث العلمي لا يبدأ بعد مرحلة الدراسة الجامعية كما نفعل نحن حاليا ، بل يبدأ منذ السنة الابتدائية الاولى وعند اول درس للعلوم ـ بل لعله يبدأ منذ مرحلة الطفولة في البيت . ذلك ان البحث العلمي هو اتجاه فكري واستعداد عقلي قبل أن يكون مهارة علمية في طرق البحث العلمي . ولما كان الطفل يتشكل فكريا في سنوات دراسته الاولى كان علينا ان نعنى بخلق الاتجاه الفكري والاستعداد العقلي للبحث العلمي عنده منذ نعومة أظفاره .

ولكن نظرة واحدة الى مناهج العلوم وطرق تدريسها في المراحل الدراسية المدرسية والجامعية تدلنا على ان آخر شيء نفكر فيه هو خلق الاتجاه الفكري والاستعداد العقلي للبحث العلمي عند طلبتنا » .

عمان ـ الاردن — البدوي الملثم

من رسائل الشاعر بدر شاكر السياب

بقلم الدكتور صالح جواد الطعمة

* * *

اخي العزيز صالح

اكتب اليك وانا في أشد حالات المرض واقساها ، ولكنني احس ان الوحشة وطأة اثقل من وطــأة المرض . لقد انتظرت ، طويلا ، ان توافيني رسالة منك . لقد قلت لك ستبدأ بالكتابة ... ولكنك معذور ، واني لاكـاد احـزر السبب الذي جعلك تنسى او تتناسى ان هناك انســانا مستوحدا تخفف رسائلك بعض احزانه . انه الربيـع . ليس الازاهير وحدها هي التي تتفتح في الربيع ولكنهـا القلوب والارواح . ولعل الربيع الخليع قد مـد انامله الرخصة لي قلبك يدغدغه ويوقظه الى الحـب او لعـل اقتراب الامتحان هو الذي صرفك عن كل شيء سـوى الدرس والاجتهــاد .

اما انا فلا احس للربيع وجودا — « هو الربيع ... ولكن عند اهليه » ولست من اهل الربيع . نعم ان الريف تكسوه حلل من سندس ، كما يقولون ، وستصبح ان مزارع النخيل وغاباته مزدانة بالصفراء والزرقاء من الازاهير ، وان اشجار الرمان موقرة بالجلنار — ولكنني في شتاء حزين ، لا أزال اتمثله في خيالي : المطر ينهمر ، وقطرات منه تتساقط على زجاج النافذة ، وتسـيل في بطء وكآبــة !!! ولماذا ارهقك وارهق نفسي بهذه الصـور المفجعــة ؟ .

لا شك في انك تتذكر انني كلفتك بان تخبر الانسة لميعة ان تعيد الي كتابا كانت قد استعارته مني ، هو ديوان الشاعر الانكليزي روبرت بروك ، ولست ادري : اتراهـا فتغافلت هي عن ارساله ام انك نسيت امر الكتاب ، ارجو منك ومنها ارسال الكتاب لان بي رغبة ملحة الى قراءتـه هذه الايــام .

لست ادري ، هل صدر ديوان الانسة نازك الملائكة « شظايا ورماد » الى الاسواق ام لا ؟ وماذا جد في عالم الشعر والادب خلال هذه المدة ؟ وبهذه المناسبة ماذا عـن « اساطير » ؟ ومتى يتفضل جناب الخاقاني بطبعه ، ارجو — فيما بعد طبعا — ان تأخذوا الديوان منه وترسلوه الي في البريد المسجل ، فاني اراه رجلا مماطلا !

مضى اكثر من اسبوع ، منذ ان خططت الســطور الاولى من هذه الرسالة ، وهاأنذا اعود الى الكتابة مـرة ثانية بعد فترة من المرض الملح ، والشفاء الكاذب — وقد انتكست الان ، بعد ان ذهبت جهود الاطباء هباء ، وذهب معها ما أملك من دراهم قليلة واصبحت انتظر ما ياتي به الغد من جديد والداء يزداد عنفا وشدة ! ولكنني مطمئن الى شيء واحد : هو انني لن اموت في القريب العاجل ، لان في الموت راحة ، وقد قدر لي الا ارى راحـة ، وان اجتاز محنا كثيرة غير هذه المحنة ..

لعلك تفهم احاسيسي ومشاعري في هذه الفترة ، اذا عرفت القصائد التي اولعت بها اكثر من سواها وقراتها مرارا حتى كدت احفظها — والحفظ شيء بغيض لـدي لانه يجرد القصيدة من روعتها — اعجبتني قصيدة للشاعر الانكليزي جون ماسفيلد عنوانها To C. L. M. وهي موجهة الى امه المتوفاة ، اترجم المقطع الاول منها ثم الخص لـك مضمون المقاطع الاخرى :

« في الترحم المظلم ، حيث وجـدت اول مـرة ، جعلتني حياة امي بشرا سويا ، وكان جمالها يغذي ارضي القاحلة ويرويها خلال اشهر الحمل التسعة الطوال : فلم اك قادرا على ان ارى ، او اتنفس ، او اتحرك الا بمـوت بعض منهــا . »

ثم يدرك الشـاعر ان امه — وهي في قبرها المظلم العميق — لا تستطيع ان تبصر هذه الحياة التي وهبـت واعطت ، أفي الخير توجه أم في الشر والخراب ؟ وهـي لاتستطيع كذلك ان تطرق الابواب المتربة باحثة سائلـة — لترى ان ذكراها قد طمست في الاذهان ، ولو كان ممكنا ان القبر يمنح ابوابه ما استطاعت انتعرف ابنها الصغير — لقد ترعرع واصبح رجلا كبيرا — وقـد يلتقيان فـي الشـارع فتمر الى جانبه ثم تواصل سيرها ، كمـا تمـر بشخص غريب — « ما لم يجعلها (وجه روحي) ترى مـا انطبع فيه من احساس بالشكر لها جزاء لبرها العميم » ..

ثم يسائل نفســه : بأي شيء وفى دين هذه المراة عنده ، وما الذي صنع جزاء لهذه المراة الحبيبـة المتوفـاة ؟ ان الرجال لا يزالون يطأون حقوق النسـاء بالاقـدام ، وان بعضا منهم ما يزال يدمي ويتبجح ببطولاته امام النساء ، وان البعض الاخر يكاد يغرق الكون في شهواته ؟ فما الذي صنع هو جزاء لتلك المراة العظيمة ؟ « ايها القبر — لتبق موصدا لئلا اخجل !! » .

سلامي للجميع ، اذا اتسع لديك المجال فلتجب ، والا فارجيء الاجابة عن هذه الرسالة الى مـا بعـد الامتحان ، ودم لاخيك المخلص

٧ — ٥ — ١٩٤٩ بـدر

★ ★ ★

ترجع علاقتي الشخصية بالمرحوم بـدر شاكر الســياب « ١٩٢٦ — ١٩٦٤ » الى سنة ١٩٤٨ حين كنت طالبا في دار المعلمين العالية « كلية التربية » ببغداد ، وكان يتردد عليها بعد تخرجه فيها وتعيينه مدرسا في الرمــادي . واتيح لي ان اواصل الالتقاء به او مراسلته بعد فصله —

الحسناء والبلبل

•

السر ليس بحسنها الفتان ... وبقامة شمخت كغصن البان
وسناء وجه بالبشاشة مشرق ... بالنور ، بالاطياب ، بالالوان
وسواد شعر مثل حظ مغامر ... في امل من طرفها النعسان
بل بالجمال مؤصلا في نفسها ... ومكملا بالطهر والايمان
هوت الهزار لشدوه ولحسنه ... فالحسن يهوى الفن بالفنان
ففدى اسيرا يا لظلم حبيبة ... زجته في قفص من القضبان
حرمته الفا في الحقول مغردا ... طلقا على الغدران والافنان
ومن الفضاء الرحب يمرح طائرا ... يشكو الحبيبة قسوة الانسان
هذا جزاء الفن من اربابه ... اسر الهزار لصوته الرنان
راحت تزور اسيرها فاذا به ... لم ينج معتزلا من العدوان
ورات هواما معنا في ضره ... فبكت عليه بادمع التحنان
خافت عليه الشر من لسعاتها ... سم الهوام كفتكة العقبان
وهفت اليه كلقه من نفسها ... بعض ، وذاك البعض كان الجاني
لا تعجبوا فالحسن يهوى صنوه ... تدان عند الفن يلتقيان
ان تسالوا فالخود لبنانية ... والفن كل الفن في لبنان

سان باولو ــ البرازيل ... فيليب لطف الله

بتهمة سياسية ــ من التعليم « ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ » فتجمعت لدي في حينه عدة رسائل تتناول مسائل ادبية عامة ، او خاصة تتعلق بنتاجه ومن بينها ما نشر في اعلاه ، وهي الرسالة الوحيدة التي استطعت العثور عليها بين اوراقي المغتربة ، وقد رايت ان تذاع لما لها من قيمة في القاء الضوء على شعره ، وقراءاته ، وما كان يحس به ازاء مرضه والموت حتى في تلك المرحلة المبكرة . ويلاحظ القارىء فيها اشارة الى شخصين ، هما الشاعرة لميعة عباس عمارة والاستاذ البحاثة علي الخاقاني صاحب مجلة « البيان » العراقية ، ولا بد لي ــ خدمة للحقيقة ــ ان اعترف ، معلقا على الاشارة الاولى ، باني الطرف المسؤول عن التاخر في ارسال ديوان الشاعر « بروك » إليه ، وان اوضح دوري كوسيط بين السياب ، والخاقاني . لقد عرضت ديوان الشاعر « اساطير » على الخاقاني مقترحا نشره ضمن منشورات مجلته « البيان » فوعدني بذلك . وقد نشره فعلا سنة ١٩٥٠ بالرغم من ان الظروف السياسية في العراق آنذاك ، والتهمة الحزبية الموجهة الى المرحوم السياب لم تكن تشجع ناشرين آخرين على التفكير في نشر نتاج الشاعر . أضف الى ذلك ان «الشعر الحر » سنة ١٩٤٩ و ١٩٥٠ لم يكن قد ضمن له قبولا واسعا ، لا سيما في مدينة « النجف » حيث كان الخاقاني يصدر مجلته ومنشوراته . ومع ذلك كله ، فان الخاقاني ــ وان تاخر بضعة اشهر فبدا للمرحوم السياب مماطلا ــ اقبل مشكورا على طبع « أساطير » ، واسهم في تعضيد حركة « الشعراء » في العراق .

جامعة انديانا ــ امريكا ... صالح جواد الطعمة



بقلم مصطفى ابو النصر



ما حدث ، كان شيئا لا يمكن تصديقه . ومع ذلك فقد حدث . كنت اجلس في غرفة ضيقة ، ذات سقف منخفض . ولم اكن متاكدا ما اذا كان السقف يزداد كل يوم انخفاضا ، ام انه على حالته منذ دخلتها . كان السقف في اليوم الاول ابيض ناصعا ، وفي صباح ليوم الثاني ، انعكست عليه اشعة الشمس من الطاقة الوحيدة في الغرفة ، فاشتد بياضه ، فاضاء الغرفة كلها . كان يجب أن اشعر بالسعادة ، فطالما ان الغرفة قد دخلتها الشمس ، فلا بد ان اكون سعيدا . وهكذا خيل الي ان السعادة حالة يمكن أن تسيطر على الانسان ما دام يستمتع بضوء الشمس . ومن هنا ادركت أن ما حدث ، شيء لا قيمة له . ولكي استطيع ان اقنع نفسي بذلك ، فقد بدات اتسلى بملاحظات مسار الظل تبعا لحركة الارض حول الشمس .

في اللحظة التالية ، كان الصمت شاملا ، فلم تلتقط اذناي حركة او نامة . ولكن كان هذا مستحيلا : كيف يمكن ان اعيش هكذا ؟ . ولكن كان لا بد ان اعيش هكذا .

انحدرت الشمس ، فكونت مثلثا على الحائط المقابل . اذن فمن الممكن ان المس هذا المثلث ، وضع كفي عليه . قمت من الركن الذي كنت قد نمت فيه ، وامتدت يدي .. : الشمس عليها الان ، والمثلث لم يعد مثلثا ، انكسر الضوء بسبب من ارتفاع الكف عن سطح الحائط .. هذا ما اريده تماما : أن احس بدفء الشمس . الجدران مطلية بالكلس الابيض الناعم تنبعث منها برودة لها رائحة العطن . في اليوم الاول ، تحسست الحائط ، وقربت منها انفي ، وكلما حاولت ان انساها ، وجدتها تتسلل ثانية منتشرة في الغرفة كلها . عندئذ توصلت الى ان الرائحة ، من الاشياء التي يمكن أن تحتفظ بها الذاكرة : كان هذا اكتشافا رهيبا في غرفة ضيقه ذات سقف منخفض ، وجدران مطلية باردة .

لزمن يمشي ، فطالما ان الشمس تتحرك اشعتها على الحائط ، فالزمن يمشي هكذا قلت لنفسي . ولم يكن معي احد اكلمه غير نفسي ، ولذلك فلم اشعر بالوحدة اطلاقا . واستطيع ان اقرر ، انني في لحظة ما ، ربما كنت سعيدا . وحينما تركتني الشمس ، لم تتركني فجاة ، وانما بشيء من الرقة : تركت لي ضوءا كان في البدء ساطعا ، ثم اخذ يضمحل شيئا فشيئا ، حتى عادت الغرفة مظلمة تماما .

لم اكن قد تناولت شيئا من طعام او شراب . على انني لم افكر في ذلك ، فلم يكن اي منهما هدفي في ذلك الحين . ولكن بالرغم من ذلك فقد بدات اشعر بالجوع . الجوع في الخارج شيء طريف ، شيء يبعث على البهجة ، شيء مطلوب دائما . فمن البديهي ان الانسان ، اذا ما شعر بالجوع ، وطلب الطعام ، فان شهيته ستكون في احسن حالاتها ، وحينئذ يمكنه ان ياكل حتى خروفا . وهكذا فقد كنت اشعر بالجوع . والغريب في الامر ، انني حينما دخلت هذه الغرفة ، كنت صامتا تماما ، بل كنت زاهدا في فتح فمي ، ولم اكن اتصور ان شهيتي يمكن ان تتحرك في غرفة كهذه ذات سقف منخفض وجدران مطلية باردة .

(في الزمان القديم ، حدثت قصة طريفة : كان ثمة رجل طويل القامة ، طويل جدا . ولم يستطع احد ان يعلل سبب ذلك الطول الرهيب . ومن المؤكد انه كان يزداد — كل يوم — طولا . ولما كان مثل هذا الطول غير مباح اطلاقا ، فقد أصدر الحاكم أمرا بالقبض عليه ، وايداعه السجن . وكان من السهل القبض عليه ، فهو معروف تماما فلا يمكن ان يتخفى ، كما انه كان يعيش في العراء . ولم يكن الحاكم قد رآه من قبل ، فحينما اصدر امره ، كان يعتقد أن ما سمعه عنه مليء بالمبالغات التي عرفت عن الناس جميعا ، ولكن السجان جاءه قائلا انه لا يوجد في السجن اي غرفة تسع هذا الانسان . عندئذ امر الحاكم باحضاره اليه كي يراه ، فلما قيل له أن هذا مستحيل ، استشاط غضبا وتصور ان الجميع يضحكون منه . ولكنه كان قد أصبح شغوفا برؤية هذا الانسان ، فاعلن انه سيغادر القصر ليشاهد هذا الكائن العجيب ، وليرى مدى صدق الناس من كذبهم . وخرج الحاكم يحف به الكبراء والوزراء . وكان الجميع في صمت مذهول . وطوال سيره ، كان يجول بعينيه باحثا عن هذا المارد المزعوم . وفجاة لمحه من بعيد ، فلم تطرف عيناه ، وانما سقط في مكانه صريعا ، دون ان تصدر منه آهة واحدة . وقد اختلفت الاراء بعد ذلك في سبب وفاة الحاكم ، فمن قائل انه كان مريضا من قبل ، ولم يتحمل السير تحت اشعة الشمس . ومن قائل انه كان قد اكل حتى اتخم ، وفي هذه اللحظة كانت ساعته قد حانت . ومن قائل ، ان منظر المارد كان رهيبا مخيفا بالدرجة التي لم يتحمل قلبه مرآه .

وعلى اية حال ، فالى الان ، لا احد يعرف ، او يستطيع ان يجزم بالسبب الحقيقي لوفاة الحاكم) .

ليس امامي سوى النوم . سارقد كما رقدت امس في الركن ، مسندا ظهري الى الحائط ، محدقا في الظلام الى أن يغلبني النوم . كنت اكره ان انام في الظلام المطبق ، وربما يكون سبب ذلك الخوف . لا بد من لمبة صغيرة ، ذات ضوء خافت ، يبدد تلك الحلكة من حولي . انني غالبا ما استيقظ في منتصف الليل ، لاشرب او اتبول ، وفي الحالتين اكره أن افتح عيني في الظلام ، قد اتصور انني عميت ، او ان احدا قد عصب عيني . لماذا لا يطرق بابي احد ؟ . اتوا بي الى هنا وتركوني تماما . ما كان يجب ان اطاوعهم او اسمح لهم بذلك . كنت ساخرا في اول الامر ، بل واثقا من ان ما يفعلوه قد صار لا يجدي . ولكن ترى ، ماذا استطيع الان ان افعل ؟. كان ثقل رهيب قد بدا يجثم على راسي ، وكلما حاولت ان اتجاهله ، القيته يزداد كثافة ، ولكن لا فائدة . يدي تمتد ثم ترتفع ، لا بد ان السقف قد ازداد انخفاضا ، وغدا في الصباح لن استطيع ان اصلب قامتي . سأظل كما انا الان ، قابعا في الركن ، محدقا في الحائط المقابل الذي لن اراه ، فمن المؤكد ان الطاقة التي تمدني بالشمس والنور ستختفي نتيجة لانخفاض السقف . ساجبر نفسي على النوم ، لا شيء يمكن أن اصنعه الا النوم .. النوم العميق .. الثقيل .. الكثيف .

★

في الصباح ، كانت المفاجأة غير مصدقة . لم يحدث ان انخفض السقف ، كما لم تختف الطاقة . بعد قليل ستدخل الشمس ، لترسم المثلث ، ولاقوم انا بالطقوس التي اديتها امس واول من امس . ولكن وقع اقدام حادة منتظمة بدا يقترب. وامام الباب الحديدي المصمط توقفت ، وجاءني الصوت سائلا :

ــ هل استيقظت ؟

فكرت الا اجيب ، فماذا تجدي اجابة رجل يعيش في غرفة ذات سقف منخفض وحيطان مطلية باردة . وعاد الصوت يسال ثانية . عندئذ قررت الا اجيب . توالت الضربات على الباب الحديدي . خيل الي ان شيئا ما قد حدث ، او ان شيئا ما يوشك ان يحدث . سمعت صرير المفاتيح [illegible] دون رنين [illegible] الباب . كان الواقف امامي رجلا لم اره من قبل ، كان يرتدي بدلة سوداء ذات ازرار كثيرة. بدا المشهد رائعا : رجل اسود ، امام خلفية بيضاء ، ناصعة البياض .

كنت في ركني ما ازال . رفعت اليه عينين باردتين ، وكنت لا افكر في الكلام . مضت فترة ، تقدم بعدها والصق ظهره بالحائط المقابل. كان مثلث الشمس قد دخل الغرفة. فحولت بصري اليه ، ولم استطع ان اقاوم . حين وضعت كفي على المثلث، كان الرجل يتاملني وانا اتجه اليه ، فترك مكانه ، وابتعد وبيدو انه لم يفهم شيئا . تركت كفي على الحائط والتفت اليه ، ولا شك انه كان في هذه اللحظة يريد ان يسالني ، ولكنه حتما ــ لم يكن يدري كيف يبدا السؤال او عن ماذا يسال . اما انا فقد كانت جميع الاسئلة لها عندي اجابة واحدة ، لاكن البادىء ؟

ــ ما رايك ؟

ــ هل انت جائع ؟

ــ اقول لك ، ما رايك ؟

ــ يبدو انك جائع .

ــ هذا موضوع اخر .

ــ وعطشان ايضا .

ــ تامل جيدا . ثم قل لي ما هو رايك الحقيقي ؟

ــ علامات التعب بادية في عينيك .

ــ لا شان لك بعيني ، قل ما هو رايك ؟

ــ بعد قليل سيقدمون لك الطعام

ــ هذه حكاية قديمة . ما هو رايك ؟

ــ الا تكف عن الهذيان .

ــ هل انا اهذي ؟

لم ينطق بعد ذلك بكلمة . ظل واقفا برهة يتاملني ، ثم هز كتفيه ، وغادر الغرفة دون ان يلتفت الي . ولست ادري ، هل نسي اغلاق الباب ، ام تعمد أن يتركه مفتوحا . وانتبهت الى انني لم اعد اشعر بالجوع ، وانتابني نشاط غير عادي فبدات اخطو تجاه الباب ، ولم أكن اخشى شيئا . ولكن قبل ان اعبر عتبته ، التفت ورائي ، والقيت نظرة على الحائط . كان المثلث قد استطال قليلا ، فبدا ضوء الشمس اشد بريقا ، فايقنت ان الغرفة ستبقى مضيئة . حتى بعد ان اغادرها .

القاهرة **مصطفى ابو النصر**

شتاء العمر

صاح اني خبرت قبل مماتي ... مغريات الاوهام شكلا فشكلا
فتبلدت حين طيف مماتي ... راح يشتاق لي نهارا وليلا
عاشق يحمل اكتئاب شتائي ... وانحلال الاشواق حولا فحولا
ذلة ان تشيع بالوجه عما ... كنت تغذيه بالحشاشة قبلا

حلب **علي الناصر**

مع مسرحيات سليمان العيسى

بقلم لطفية الشهابي

* * *

نكاد لا نختلف على ان الاستاذ سليمان العيسى من ابرز شعرائنا المعاصرين ، ولا سيما في مجال الشعر القومي والوطني والاجتماعي . فدواوينه صورة حية لما حل ويحل بالبلاد العربية من احداث هامة ، ولما يعانيه الشعب العربي من فقر وارهاق وضيق . ولكن شاعرنا منذ بضع سنوات خلت بدأ يدير نظره الى الماضي القريب او البعيد ، يأخذ منه احداثاً ويعرضها في اطار شعر تمثيلي مسرحي . وقد كان مصدر اخباره واحداثه القديمة الكتاب الادبي الكبير الذي خلفه لنا ابو الفرج الاصبهاني (كتاب الاغاني) .

يقرأ الشاعر الخبر ويستوعب الحادثة ويتأثر بها فيعيد عرضها من جديد في اهاب مسرحي . هكذا كان بالنسبة لقصة جبلة بن الايهم ، ولقصة ابي محجن الثقفي، ولقصة معن بن زائدة مع الشخص الذي بزه بالكرم . واريد ان اقف الان وقفتين : احداهما عند الازار الجريح، والثانية عند (انسان) وهما العنوانان اللذان اختارهما لعرض اخبار جبلة ومعن .

اما جبلة فهو ذلك الشخص المعروف تاريخياً بالامير الغساني الذي اسلم ثم ارتد عن اسلامه وعاد الى اسياده الروم اثر حادثة مشهورة جرت حول الكعبة اثناء طوافه ، حين لطم اعرابيا وهشم له انفه لانه وطىء طرف ازاره عن غير قصد ، فاشتكى ذلك الاعرابي الى عمر بن الخطاب ، فرأى عمر ان يطبق مبدأ القصاص وان يلطم الاعرابي جبلة لقاء تلك اللطمة التي تلقاها منه . ولكن امير غسان المتكبر المتغطرس هاله الامر واستعظمه اشد الاستعظام ، فما كان منه الا ان طلب من عمر مهلة لينظر في امر نفسه ، ثم شد رحاله وفر هاربا الى اسياده القدماء في بلاد الروم ، حيث لا مساواة بين سيد ومسود ، ولا بين امير مشهور واعرابي مغمور . فر جبلة ومعه ابنته اميمة التي اوجدها شاعرنا وجعل لها دورا في المسرحية وجعلها متيمة باحد قادة ابيها ، وهو القائد عمر ، ذلك الذي رفض الارتداد مع جبلة رغم حبه الشديد لاميمة ، وفضل ان يبقى في صفوف اخوانه العرب المجاهدين في سبيل الله .

وقد استطاع الاستاذ سليمان خلال مسرحيته ان يصور لنا بدقة شخصية جبلة وكبرياءه وتعاليه . فها هو يدفعه كبرياؤه وتعاليه الى الاستهانة بأمر الغزاة المسلمين حين ابلغ بخبر قدومهم فيقول :

فلول صحراء من الظما الطويل
من زفرة الحرمان جاؤوا
في اقتناص المستحيل
يرمون قيصر بالحفاة
يرموننا يا للغزاة

ويقول في مكان آخر من اللمحة نفسها :

لن يعبثوا بعرين غسان
ما زال لي خيلي وفرساني

ثم يقول كذلك في موقفه أمام عمر بن الخطاب في مجلس القضاء :

كنت بالبيت اطوف   والملبون رفوف
بغتة ديس ازاري   داسه هذا الفزاري (١)
كدت في الكعبة امرى   كان نكرا ما اتاه كان نكرا

ثم يقول ايضا مخاطبا الريح وهو في طريق عودته الى القسطنطينية :

ايها الهاتف ايا كنت   دعني وجنوني
لست من يرهب همس الليل   صوت الريح ضوضاء السكون
صولجان الملك ما زال ـ ولن يبرح ـ يزهو في يميني

تلك كلها امثلة كافية للدلالة على ما ظهرت به شخصية « جبلة » خلال المسرحية من كبرياء وتعاظم ، فكيف لا يقول امام عمر :

كيف ارضى ؟   ان يخر النجم ارضا
كيف ذاك ؟   هو سوقة
وانا عرش وتاج

ويصور لنا الشاعر كذلك شخصية الخليفة عمر وما امتاز به من عدل وديمقراطية فنراه يقول لجبلة :

قد قبري يعبر المستضعف الصافي ويظلم
عند قبري جبهة بالاثم بالباطل تلطم
نزوات الجاهلية   ورياح العنجهية
قد دفناها ، اقمنا فوقها صرحا جديدا
وتساوى الناس : احرارا لدينا وعبيدا

كما احسن تصوير شخصية القائد عمرو محبوب اميمة وما تحلى به من شجاعة وتفان في حب قومه العرب. فها هي شجاعته تبرز في تقديمه نفسه لمليكه جبلة كي يقذف به حيث يشاء :

وما يريد الملك الهمام ليقترح :
فيرم انى شاء بي   في كفه الحسام

ويقول في لقائه الاول مع الخليفة ابن الخطاب :

كان في جنبي دوامة شوق وانتظار
كم تلهفت الى هذا النهار

ويقول كذلك مخاطبا الخليفة :

انا منكم لم اغب الا كما   غابت اليسرى عن الكف اليمين
تشرد الفرسة عن تربتها   ثم تاوي ، جذرها باق مكين

كما استطاع الشاعر ان يعرض علينا صورة حية دقيقة للندم الذي اصاب جبلة بعد ان عاد الى بلاد الروم ، ومنذ اللحظات الاولى في طريق عودته . فها هي خواطره

---

(١) الفزاري هو ذلك الاعرابي المنتسب الى بني فزارة . (٢) الامكنة في المسرحية تزيد على هذه التي عددتها .

تتوارد الينا على لسان الريح :

الى اين ؟ يا ايها الاحمق ... الى اين ؟ هذا السرى الرهق

ثم نرى صورة الندم واضحة في حديث أحد القادمين الى ابن الخطاب من عنده حين قال :

فرات في مقلتيه الندم ... والحزن والغربة والسلم

قرات ما لا يقدر البيان ... عليه ما يعيا به اللسان

وعاود السؤال عنك عن الديار

فقد حكى لنا احساسه الشديد بالغربة ، وندمه في وقت لم يعد ينفع فيه الندم . وتمكن كذلك من عرض مشهد رائع للصراع النفسي لديه وهو في طريق ارتداده الى بلاد الروم حيث أوجد شخصية الريح الخيالية التي تولت الحوار مع جبلة ، وعكست لنا من خلال ذلك الحوار ما عاناه الامير العربي من صراع نفسي عميق بين كبريائه وتعاليه من جهة ، وبين أساه وحزنه لفراقه أهله واخوانه وارضه من جهة ثانية .

وقد عرضت علينا المسرحية مجزاة الى ما أسماه المؤلف باللمحات فكانت ثلاث عشرة لمحة نابت مناب الفصول والمشاهد . وكتبت باسلوب شاعرنا الذي نعرف فيه الجزالة والتماسك والترابط والوقع الموسيقي الجميل ، والصور الفنية الخلابة . وما من شك في أن مثل ذلك الاسلوب يناسب شخصيات المسرحية ، اولئك العرب الاقحاح الذين عرفوا بفصاحتهم وبيانهم .

اما اذا نظرنا الى مسرحية « الإزار الجريح » من حيث امكانية الاخراج والتمثيل فلا بد ان تستوقفنا ظاهرتان بارزتان تجعلان اخراجها ، كما اوردها المؤلف ، أمرا صعبا . الظاهرة الاولى هي تلك اللمحات الاولى في المسرحية والتي تصور منظر القوافل العربية الاتية الى دمشق عند مداخل المدينة وصوت حدائها للابل ، بينما الشاعران العربيان : حسان والاعشى يقفان في غاية الطرب لسماعهما صوت الحداء . ثم تعرض علينا تلك اللمحات بعد ذلك مشهد الشعراء العرب : حسان ، النابغة ، وعلقمة بن عبدة في حضرة الامير الغساني ، وتقديمهم المدائح المختلفة بين يديه ، وتبدي لنا انطباعاته الخاصة وملاحظاته حول تلك المدائح . آن هذه اللمحات بحد ذاتها جميلة ، ولكن كيف يستطيع مخرج المسرحية ان يبرزها وهي لا ترتبط ارتباطا قويا واضحا بالفكرة المسرحية . بمعنى انها مقدمة جميلة ولكنها غير مناسبة لتوليد الاحداث الاتية بعدها .

والظاهرة الثانية هي تطاول الزمان وتعدد الامكنة ، وهو ما يعيق ايضا قضية الاخراج . فبينما نرى حسان بن ثابت في اول المسرحية جاهليا ينشد جبلة شعرا في دمشق ، اذا بنا نراه شيخا متهدما في نهايتها ، يتلقى الهدايا من الامير الغساني بعد أن فقد بصره . وتلك فترة زمنية ليست بالقصيرة ، وليس من السهل تداركها والايحاء بها في جو مسرحي سريع . واذا سهل أمر الزمان بعض الشيء فان المكان في نظري اكثر صعوبة . وقد تعددت الامكنة بشكل سافر . فنحن تارة مع القوافل والشعراء العرب في مداخل دمشق ، وتارة مع الامير الغساني وشعرائه ثم قادته في قصره قبل الفتح لدمشق. ومرة مع القائد عمرو وحبيبته اميمة في انطاكية اثر فرارهم اليها بعد استيلاء المسلمين على عاصمة ملكهم . وحينا مع عمرو في حضرة عمر ابن الخطاب في المدينة المنورة ، او مع موكب جبلة اثناء مروره من دمشق متجها الى المدينة فمكة للطواف حول الكعبة . وبعدئذ في طريق ارتداده الى القسطنطينية (٢) ... الخ . واعتقد ان هذه الاماكن المتباعدة المترامية تجعل من العسير تلافيها اثناء الاخراج والتمثيل .

واذا كان الاستاذ سليمان قد تردد في مقدمة مسرحيته في امر تسميتها ، واراد ان يطلق عليها اسم قصة شعرية فاننا لا نستطيع الآن تسميها مسرحية ، وان نبدي حولها ملاحظات تخص الفن المسرحي ، وان كان قد اعترف صراحة في مقدمته لها بانه لم يعن كثيراً بالفن المسرحي فيها ولا بامكانية الاخراج الا اننا لا ننسى كيف انه في هذه المقدمة ذاتها جعل أشباح عمالقة المسرح تنتصب امامه مشجعة .

اما المسرحية الثانية (انسان) فانها تتسم بما اتسمت به سابقتها من اسلوب جميل ، وموسيقى معبرة والفاظ قوية . وتمتاز عن سابقتها بالايجاز في عدد اللمحات ، فهي لا تزيد على اربع لمحات . وكذلك فان زمانها ومكانها لا يمتدان كما امتدا في المسرحية السابقة . وموضوعها ايضا ماخوذ من الاغاني ، يحكي قصة فرار معن بن زائدة من ملاحقة العباسيين له بعد ان رصدوا جائزة لمن ياتيهم به ، وتعرض التجاءه الى احد اصدقائه ، وحديث الناس المتصل عن كرمه وفضائله ، ثم كيف حظي به احد حراس الخليفة فطلب معن منه ان ينقذ حياته بعد ان منحه عقداً من الجواهر الكريمة . ولكن الحارس الاسود الذي حظي بمعن كان معجبا أشد الاعجاب بشجاعته وكرمه ، فأراد ان يثبت له أنه رغم فاقته وفقره اكثر منه كرما ، فخلى سبيله ، مهملا جائزة الخليفة ورافضا قبول العقد من معن ، وغير عابيء بحاجته الماسة وحاجة اسرته الى مثل تلك الاعطية الفخمة .

وواضح ان غاية شاعرنا من وراء مسرحيته هي اظهار سمات النبل والكرم والتسامي التي لا تقتصر في حال من الاحوال على المشهورين المعروفين ، بل قد يتسم بها اناس من عامة الشعب لا يلتفت اليهم احد ، ولا يحاول انسان ابراز شأنهم ورفع مكانتهم والتحدث عن شمائلهم . وكأنما اراد شاعرنا ان يبين لنا بأن السمو النفسي يجعل صاحبه راضيا مطمئنا مهما كانت أحواله المادية قلقة ، فاعطانا مشهدا جميلا لهذا الرجل الاسود الذي يداعب طفلته الصغيرة (ياسمين) منشدا لها أحلى الاغنيات ،

الجراح تتكلم

دم غلـى بعروق الحـق فالتهبـا   نـارا مسـعرة تستنهض العـربا
دم لـه شـعل في الروح موقدة   لا تنطفـي او تنـال الثار والطلبا
دم سيبقى على طول المدى ضرما   وليس يبرد حتى يغسـل التربـا
حتى يطهـر ارض القدس من زمر   عاثت بها ويعيـد اليوم ما سـلبا
دم الابـاء الـذي يغلي بانفسـنا   بركان موت على الباغي اذا انسكبا
تململ الرمـل هدارا فثورتـه   اعصار رعب تلظـى ينفث العطبا
ان الحديد تفل النـار سـطوته   فيا دمانا افيضي المـوت واللهبـا
«فالسيف اصدق انباء» فواعجبي!   من ثائر في الوغى يستنطق الكتبا

نبنـي على هـام قتلانـا لأمتنـا   مجدا رفيعا يضاهي الشمس والشهبا
ومن دمانا سنسقي العز ان ذبلت   وروده واشتكت اغصانـه الجدبا
نابـى الهـوان فلا ذل ينكسـنا   خسفا وهمتنا لا تشتكي التعبـا
هذي الدمـاء ضياء في مسيرتنا   تهدي العصور وتجلو عندها الحجبا
هذه الدماء فلن تخبـو مشـاعلها   حتى تحيل عروش الظالمين هبـا
ولن تقر وفي قدسـي مواطنهـم   تزل اشباحهها الناقـوس والقببا
فيا سمائي احيلي الشمس عاصفة   تطوي الغزاة تدق الراس والذنبا
ويا ترابـي تضرم مارجـا واحـل   خطاهم وصدى اوهامهـم حطبـا

صبرا فلسطين ان الجرح ملتهب   والويل للظالم من جرح اذا التهبا
سيكشف الحـق للاجيـال زعنفة   خلف الستارة حاكت كفها الشغبا
لا بد ان ينجلي الليل البهيم وان   يسمو الصباح ويجلو نوره الريبا
اذا تعبنـا لنيـل المجـد نلقـه   فالمجـد آت لمـن في نيله تعبـا
وليس بالمجـد ان تبقى محافلنـا   تتلو القصائد والاقـوال والخطبا
ان الحديـد تفل النـار سـطوته   فيا دمانا افيضي المـوت واللهبـا

بغـداد   عبد الاله الياسري

واولاده من حوله يشاركونه بهجته ونعيمه ، فكانت هـذه الفقرة وما تلاها من تكملة لصورة الاسود النفسية ترجمانا عمليا للحديث الشريف (ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس) .

وهكذا فان شاعرنا بعد ان جاب انحاء واقعنا المرير اجتماعيا وقوميا في دواوينه المتعددة ، وبعد ان عبر عـن بعض ساعاته الخاصة بين صغاره في بيته ، لم يفته ان يلقي نظرة الى التاريخ فيقتبس منه مادة لمسرحياته . وقد احسن الاختيار والسبك والعرض والايقاع . ولكن لا بـد من كلمة اخيرة في مسرحياته من حيث اللغة والاسـلوب، فحين قلت عن الجزالة والقوة والتماسك ، وجب علـي ان اضيف ان ذلك السمو الاسلوبي يحوج المسرحية الـى مشاهدين مثقفين ، بل من ارقى طبقات المجتمع ثقـافـة وقدرة على التذوق الفني . والا فأنى للعامة ان تستوعب مرامي هذا الاسلوب الرفيع ، وان تتفهم تلك الصور الفنية المعقدة الواسعة الجوانب .

ونحن اذا كنا نطرب ونسر لقراءة هذه المسرحيـات ونتمنى مشاهدتها على خشبة المسرح فاننـا نتمنى لـو استطاع اخوة لنا من ذوي الثقافة اللغوية والفنية المحدودة ان يشاركونا في حبها ، والطرب لها والاستمتاع بما تحويه من فكر وفن وجمال . ولن أرغب الى الاستاذ سليمان ان يقرب اسلوبه من الجماهير ، وانما اتمنى صادقة ان يرتفع المستوى الثقافي عند شعبنا ليتمكن من تذوق طيبات مـا ينتجه لنا امثال سليمان العيسى من خـير وعطـاء رائع رفيـع .

دمشق   لطفية الشهابي



اقـاصيص اردنيـــة

تاليف عيسى الناعوري (؟) صفحة ـ الدار التونسية للنشر بتونس

« اقاصيص اردنية » (١) مجموعة قصصية للاديب عيسى الناعـوري ، نشرتها الدار التونسية . وهي تجمع ثلاث عشرة قصة قصيرة مختلفة لكن ينظمها خيط واحد ، بحيث نرى ان الامكنة متشابهة ، والبيئـة متقاربة ، والاشخاص من بنية واحدة .

والجديد في هذه الاقاصيص ان تكون القرية الاردنية مسرحهـا ، ولئن جعل اكثر كتاب القصة عندنا « المدينة » همهم ، بما طرا عليهـا من قلق واضطراب ، وبما اصاب اناسها من تغير وتطـور ، فـان قصاصنا الناعوري لم ينس تلك القرية التي لا تزال كانها جزيرة منعزلة عن صخب المدينة ، لا تنساب حولها الا امواجها الهادئة ، ولـم ينس اولئك الاشخاص الذين لم تبهرهم الحضارة الحديثة ، بل آثروا عالمهم الذي ينعم بالجمال الطبيعي والطمانينة الروحية .

ولكن ليس معنى ذلك ان ننظر الى القرية كعالم خلا من مشاكله ـ اذ لكل عالم مشاكله ، صغيرا كان او كبيرا ـ وكثيرا ما تقوم هـذه المشاكل على الحدود التي تقترب فيها المدينة من القرية لابتلاعها ، فيكون عند ذلك ، نزاع ، وتردد ، ومقاومة واستسلام !

تبدا المجموعة بقصة « هدية ما تزال وعدا » حيث نرى البطل فتى من فتية القرية ، مال الى ابنة عمه « خضرا » ميلا استحال حبـا ، والحب في القرية كالنبات فيها ، سرعان ما ينمو ويسمو ! والجمـال جمال قروي بسيط لا يخفي فتنته !

دعت الدراسة الفتى الى المدينة ، والمدينة اخيلة سـاحرة فـي نفس ابن القرية ، ويكفيه ان يعود غدا ليعيش عيشة مدنية ، في بيئة قروية ! وعند الوداع كان طلبها منه « سوارة » ذهب !

وفي المدينة تبدلت نفس الفتى ، وتمرد علـى حيـاة القريـة الضيقة ، الخشنة القاسية ، وبدلا من ان يعود الى القريـة ، تـزوج من المدينة ، واستقر فيها . ولما زرت القرية التقت عيناي بعينيها .. وابتسامتها الحلوة العذبة ... ولكن مع الابتسامة لمحة عتـاب ... ـ اين السوار الذهبي ؟ .

« وبدلا من السوار الذهبي ، سوار الامل الجميل ، اعود ومعي مـــاذا ؟

زوجة من بنات المدينة وثلاثة ابناء » .

وهذه قصة « شيخة » التي احبها فتى مصاب بالحـب الروحـي الذي يابى ان يكون وعاؤه الجسد ... ولكن « شـيخة » تزوجـت ، لانها لا تريد عابـدا يقدم لها قرابيـن السـجود ، بل تريـد رجـلا يحبها ، يحب جسدها وروحها معا ..

وهو يعلل نفسه بقوله : ـ انها امراة ، اذن ، ككل امراة ..

ثم كره كل امراة بعدها .. ، وحـين ماتت لم يشعر نحوها بحرقة ... !

مع من يميل الكاتب ؟ هل يعطي الحـق للفتى او الفتاة ؟

وهل يصدق في قولـه : « ها قد عـادت الـى الـتراب مـن جديـد ، وايـة قيمـة للتراب ؟ » .

ولكن ، هل هو نفسه لغير التراب ؟

ليس في هذه القصة الا فتى مصاب بمرض نفسي جعل الحـب حب الروح وحب الجسد ، وتركه شامتا بما صارت اليه حبيبتـه بعد الموت ... فهو اقرب الى التمثال منه الى الانسان .

وهذه قصة « انتصرت الارض » ... قصة رجل عانى في حـرث ارضه ، وتنشئتها ، وقاوم التلف والعوائق ، وتحدى مشاكل الطبيعـة والناس ... اعوام طويلة من التعب والعرق ، وهو يغرس ويفني عمره ، وبدلا من ان يمل كالاخرين استطاع ان يقنع رفاقه بشراء اراض جديدة ، وغرس الاشجار المثمرة ..

وتكاثرت البساتين فعلا . واتسعت كذلك رقعة الارض التي تمـوج فيها الـسنابل الخضراء ، وكبرت القرية ... فقالوا :

ـ لقد انتصر ابو عايد بصبره وكفاحه وعناده !

وقـالـوا :

ـ بل لقد انتصرت الارض الخيرة التي لم تبخل بعطائها رغم كل شـيء !

وقـالـوا :

ـ لقد جاء الى هناء في ميعة الشباب ، ولم ينتصر ولتنتصر معـه الارض الا بعد السبعين من عمره !

انها لقصة رائعة في تصوير كفاح ابن الارض وابـــن القريـة ، وامانة الارض لمن يعمل فيها !

وهناك قصة « موت العمة » وهي قصة انسانية ، فوق انها قصـة تمثل حياة القرية . كان لها زوج مات ، ولها خمسـة اولاد ، كلهـم غادروا القرية الى المدينة بحثا عن الرزق ،فهي بعدهم تحيا وحدها ، ولكن حبها لهم انقلب الى حب الاطفال ... كل الاطفال في القرية ...

ـ « اولادي كانوا مثلكم حلوين ، واليوم طاروا كلهم من عندي ... الله يخليهم ويرضيهم ! »

« لقد كان قلبها دائما طفلا مثلنا في براءته .. وكنا نحبها حقـا ، حتى حين لم نكن نجد لديها شيئا من الحلوى » .

ـ « يا اولادي ! كانت الحياة حلوة وبسيطة في تلك الايام .

كانت سعيدة مع القناعة ، ومخافة الله . كل القرية كـانـت عيلة واحـدة ... ! »

وفي صباح احد الايام استيقظنا على صوت جرس الكنيســـة الحزين ، وقيل لنا « ام سمعان ماتت ! »

لقد ماتت وهي تبكي لعدم وجود احد من ابنائها وبناتها معها في لحظات عمرها الاخيرة .

ـ يا لتعاسة الشيخوخة المحرومة المهجورة !

وكان الاطفال وحدهم يشعرون بفقدها ، وانقطاع هداياها .

ومنية ام سمعان تختلف عن منية الفلاح « ابو نصر الله » الـذي كان شبابه يتجدد كلما نبت الزرع في حقله الواسع » .

لقد بلغ الثمانين من عمره ، وهو لا يمل من العمل .. الخـير دافق عليه وعلى اولاده الذين يدعونه الى الراحة وهو يابى .

ـ مات بين اولاده واحفاده ، وحقله لا تزال يموج بالسنابل !

وفي قصة « الاخوات الثماني » اب عنده عقدة نفسية موروثة ..

---

(١) اذيعت من محطة لندن .

كان قد تزوج ودفع المهر غاليا لامرأة لم تلد له الا البنات .

وحين آن زواج البنات تملع عن زواجهن الا بمهور غالية ، كأنه يريد التعويض عما دفعه .

تعلمت البنات وصار لكل واحدة منهن مهنة ، وهو يجمع اجورهن لنفسه ، ومع ذلك ، ظل على عناده ، وجموده ، دون ان يقدر شعور بناتـه ...

ولكن البنات بدأن يهربن من داره خطفا مع ازواجهن ..

واخيرا خضع لارادة الاخيرة ..

كم من ضحايا لغلاء المهور ، نتيجة تصلب الاباء ، وتحكمهم فـي الابنـاء ! ..

وفي قصة « خريف » ماساة من نوع اخر ، البطل فيها يصنـع ماسـاته .. « عيده » فتاة قروية ايضا ، تعيش الان وحيدة في كوخ حقير ، حول موقد مملوء بالرماد .. يمر بها اطفال يلعبون ويمرحون : ولكن كوخها لا تتردد بين جوانبه العالية ضحكة طفل ..

لقد كانت حلم كل شاب .. ولكنها تمردت وارادت فتى من المدينة ... من الموظفين في القرية ، ولكن لم يتقدم لها احد منهم .

وفي خريف عمرها تزوجت رجلا كهلا .. وما مثل الكهولة يدفـىء الكهولة ! انجبت اولادا لم يعش منهم احد ، لان الرمـاد لا يعطـي الحيـاة .

واخيرا مات الزوج وبقيت وحدها ، وهذه الحقول المترامية امامها تعكس الخريف العابس البغيض الذي تمتلىء به نفسها .

تعلل نفسها بالا حظ لها ... ولكن كان لها حظ ، وهي التـي دفنته بالانتظار .

ومثلها « فضة » التي لم ترد الزواج من فلاحي القريـة ، وكـان مثلها الاعلى « العسكري » الذي لا يعاشر البهائم ، ولا يحرث الارض ، ولا يجمع الحطب ، ولا تعرف ثيابه الوسخ !

واصبح شباب القرية يميلون الى العسكرية ، حتى صارت القرية قرية العساكر .

وتتزوج فضة عسكريا ... وتحقق امنيتها . لكن يلقى مصرعه في الحـرب .

لم يبق من حلمها الذي تحطم الا ان تجمل من ولدها حلم عذارى القريـة في لباسه العسكري كما كان ابـوه .

ان الحياة هنا تمتد من الاب الى الابن لتجد التعزية . وكثيرا مـا تمسح الاحلام الاحلام .

وهناك قصص اخرى كلها تؤيد وتقدس حياة القرية وما فيها من بساطة تامة ، وترد شباب القرية عن المدنية الزائفة الى القريـة الصادقة . وكأنها نغمة واحدة تمجد الحياة القروية وتحذرها من عاقبة الانزلاق نحو المدنية الغاوية .

وتبقى قيمة هذه المجموعة ، بعد ذلك ، في أنها احسنت رسم صور صافية ملونة للقرية ، وتصوير شخصيات مهملة في القرية .

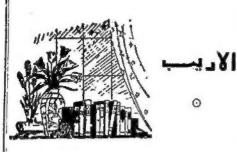
خليل هنداوي

•

الفـداء في الاسـلام

تاليف الشيخ الدكتور احمد الشرباصي ـ ٢٤٠ صفحـة ـ الناشر : دار المعارف بمصر سلسلة اقـرأ

يعتبر موضوع الفداء في الاسلام من موضوعات الساعة التي يجب ان نعرف عنها الكثير، وتقلب صفحاتها طلبا للتاسي، وابتغاء للقدوة .



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العـادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

•

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنـى

•

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابهـا سواء نشرت ام لـم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلـة

•

تلفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ — المنزل ٢٢٥١٣٩

Tel : Dir : 223819 — Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

•

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البيـر اديب

وظروفنا العربية الاسلامية الراهنة تحبذ ان يكون الحديث حديث حرب وفداء ، وقتال وتضحية .. وهو حديث مفروض في كل يوم وكل ساعة ، خاصة حين نتراشق بالنيران مع العدو ، او تغير طائراتنا على مواقعه او تعبر قواتنا اليه حيث يقبع محتلا لاراضينا ، بالصلافة والغرور والحقد الدفين ! .

والفداء في الاسلام وله منذ نشأت الدعوة الاسلامية واصطدمت بقوى الجهالة والظلام التي حاولت أن تطفيء نور الله الذي يشع هاديا ومرشدا في زمن كان الناس احوج ما يكونون الى الهدي والرشاد . واستمر الفداء مصاحبا للاسلام منذ النشأة حتى يومنا هذا الذي اجتمعت فيه قوى البغي والشر تريد قهر امتنا العربية وسحق قيمها ومثلها ، وتحطيم ارادتهاوكيانها .. يقول الشيخ الحجة احمد الشرباصي: « اننا اليوم امة لا بد لها من اليقين بان حاضرها يجب ان يكون امتدادا لماضيها ، في قيمها ومقوماتها ومثلها ، وان غدها يجب أن يكون وليدا لحاضرها ، نحن الان نتعرض لمرحلة حاسمة من مراحل نضالنا وكفاحنا ضد اعدائنا الذين يتربصون بنا الدوائر عن يمين وشمال » . ولكي يكون حاضرنا امتدادا لماضينا لا بد من الفداء وهو نزعة الى التضحية بالنفس والمال وكل ما يملكه الانسان من اجل ان تحيا عقيدته ويبقى وطنه ويتحرر بلده ويسود الامن والطمأنينة مجتمعه .. ولقد ضرب المسلمون الاولون اروع النماذج في الفداء حيث وضعوا ارواحهم على اكفهم ، وساروا على الدرب لا يريدون سوى وجه الله والدفاع عن الحق ضد الباطل ، لا يقيمون وزنا لمادة ، ولا ينتظرون سلطانا او جاها .. بل هي العقيدة تحركهم والايمان يدفعهم ، وكان من بطولاتهم ذلك التاريخ المجيد ، والمجد الاثيل الذي ظل نبراسا وضاء يقتدي به الفدائيون في كل مكان وكل عقيدة .

يقول الشيخ الشرباصي : « واذا كان قدر الله العادل قد ألقى علينا بالامس درسا صارما من دروس الابتلاء بالنكبات ، ومرضنا لموقف عصيب من مواقف التمحيص بالشدائد ، فان العمل الفدائي المؤمن ظهر همزة وصل مباركة بين ماضي الجهاد وآتيه ، واستبان لنا ان آخر هذه الامة لن يصلح من حاضرها ، الا بما صلح به في ماضيها المشرق الكريم، من استمساك بعروة الايمان الوثقى ، وتدرع بدرع اليقين الحصين ، واعتصام بحبل الله القوي المتين ، واجتماع على روح الجهاد حتى الاستشهاد ، والتقاء على بيعة لله صادقةوفية تباركها يد الله ، ويؤيدها بعونه وهداه » .

ونحن نؤمن ايمانا كاملا ان الروح الديني هو اس الفداء واساس التضحية ، وهو الدرب الواضح والطريق المستقيم الى تحقيق النصر على اعداء الله والاديان والبشر .

ولقد صحبنا المؤلف في كتابه ليعرض لنا الفدائية : صورتها ودوافعها ونماذج اسلامية بارزة للفداء في صدر الاسلام وعصرنا الحديث ... اننا نلتقي باولئك النفر المؤمن المخلص لله ولرسوله وللعقيدة وهو يخوض غمار الحروب من اجل ان تعلو كلمة الله وتسقط كلمة الباطل .. أننا نعيش مع قائد اول فرقة فدائية في الاسلام : ابو بصير عتبة بن اسيد ونحيا مع الفدائي الشهيد ابن الشهيد : ابو جندل بن سهيل . ونقرأ ـ ربما لاول مرة ـ شيئا جديدا عن هذين الرجلين المؤمنين . وبالاضافة الى هذين نعيش مع ثلة مؤمنة شهيرة منها : سعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن جحش ، وابو سلمة المخزومي ، وسعد بن معاذ وزيد بن حارثة ، وعبد الله بن رواحة ، وعز الدين القسام .. وغيرهم .

ان الكاتب يجلو لنا صورا واضحة لاكثر من خمسة عشر رجلا فدائيا .. فضلا عن معلم الفدائيين الاكبر محمد صلوات الله عليه وسلامه . بيد اننا كنا نود ان نرى شيئا عن سيد الشهداء والفدائيين الحسين بن علي رضوان الله عليهما . فقد قاتل في سبيل الحق والظروف غير مؤاتية مع علمه بذلك ومعرفته بأن الموت هو النتيجة المؤكدة ، ولكن الحق كان هو المطلب وهو الفرض ، فلم يتراجع امام القهر ، ولم يستسلم حتى لفظ انفاسه الاخيرة مؤمنا بالله وبرسوله وبالعقيدة كاحسن ما يكون المؤمن سلوكا وايمانا . ونعتقد ان ورود هذه الشخصية الحبيبة يغير من منهج الكتاب او يتعارض مع مذهب الكاتب في الفداء والفدائيين .

ونود اخيرا ان ننبه الى اخطاء مطبعية في الصفحات ٢٤ ، ٣١ ، ٥١ ، وهي تتضمن حروفا بديلة لحروف ، او حروفا ساقطة وكلها في الايات القرآنية المقتبسة .

ولا يسعنا الا ان نقول ان هذا الكتاب قد جاء في اوانه وانه جهد طيب يشكر عليه مؤلفه الشيخ الدكتور ، او الشيخ الحجة احمد الشرباصي ، الداعية الاديب ، والفقيه الاريب .

دمنهور – ج٠ع٠م٠ **حلمي محمد القاعود**

•

شعر ابي زبيد الطائي

جمع وتحقيق الدكتور نوري القيسي – ٢١٤ صفحة – مطبعة المعارف ببغداد

لا يصح أن نعد كل من حاول النظم وجرب قول الكلام الموزون المقفى شاعرا ، الا لا يؤلف الوزن والقافية حدا جامعا مانعا كما يقول المناطقة لمفهوم الشعر . وكثير من الاقوال والخطرات المجراة بقالب النثر يمكن ان تسلك في عداد العطاء الشعري ، كما تتسم به من غلبة الشعور وطغيان الاحساس وتلهب العاطفة ، بينما تنعدم هذه الخصائص والعناصر الهامة ولا نلمح لها اثرا واضحا في المنظومات العديدة الدالة على تمكن اصحابها من تصيد القافية واحكام الوزن . والشاعر هو الانسان الذي تحتدم في اعماقه الاشواق والعواطف وتضطرب في اغواره المشاعر والاحاسيس ، فلا يلقي ندحة غير ان يصوغها معاني وافكارا ، يتخفف بواسطتها مما يثقله ويبهظه من المعاناة الشعورية الحادة والتجربة الوجدانية المصطخبة ، ولا يعد الشاعر مجيدا بارعا في فنه الا ان يقترب من حد الابداع والابتكار في صياغته ومضمونه ، ويعقب بعده نتاجا رائعا تتمثل فيه عناصر شخصيته ومكونات ذاته وينسب له وحده! أما ان يغير على معطيات سابقيه ومعاصريه ويمعن في محاكاتها وتقليدها واعادة نسجها دون ان يضفي عليها من توليده واستنباطه ما يكسبها جمالا وقوة ، فلا يصح اعتباره شاعرا اصيلا .

من هنا حفلت ديوان الشعر العربي في مختلف عصوره بجملة من المعاني والمضامين وحتى القوالب والاشكال ، والتشبيهات والاخيلة ، ظل الشعراء يتعاورونها ويعولون عليها ويستقون منها باستمرار على شاكلة تنم عن تهافتهم وتبذلهم ، وقصورهم عن الابتكار والتوليد ، مما حدا بالمجددين من الادباء والنقاد ، ان يعلنوا غضبتهم المشروعة على امعان دارسي الادب العربي القديم ، في احياء وتحقيق كل ما عثروا عليه في الغرف المظلمة من اوراق صفر مخيلين لذواتهم انها تراث فكري ينطق بعبقرية الامة ، ويدل على اصالتها ونبوغها ، وينبغي على هذا رعيه وتقديسه والاعتزاز به وتسخير الجهود العظيمة لاحيائه وجعله في متناول الاجيال الطالعة ، ناسين ان حملة الاقلام من القدامى ، لا يختلفون عن نظرائهم في الوقت الحاضر من حيث تفاوت مواهبهم وامكاناتهم وتباين طاقاتهم وقدراتهم ، فبينهم المبتدع والمقلد ، والاصيل والدعي ، والمطبوع والمتصنع .

فليس لزاما ان يسرف في التحقيق والاحياء (١) ، او تبذل الاموال

الطائله في اعادة طبع لنتاجات سابقة قد لا ينتفع بها احد او يعول عليها في صقل كفاياته او تصحيح معارفه وتصويب ارائه ، او تعينه في استنباط قرائن واستنتاجات جديدة ، تغير فهمه ورايه وموقفه ، حيال مسائل الاجتماع والفكر والثقافة ، يستوي في هذا ما تقادم منها واخلقه التداول ، وما استجد وتوافرت له اسباب الريادة .

فما عسى ان يكون مجهود الدكتور نوري القيسي في تحقيق واحياء ديوان ابي زبيد الطائي ، الذي شهد حياة الجاهلية والاسلام ، واكتوى بحوادث الفترتين الخطيرتين من تاريخ العرب واسهم فيها وعني لوقعها وتاثيرها ؟ .

الجواب المقطوع بوجاهته ونصاعته ومته الى الصحة والسداد وتجرده من الخطل والفجاجة ، يتوقف الى حد بعيد على المحصلة التي يمكن ان يضيفها مجهود المحقق الفاضل الى رصيدنا من الاستنتاجات والحقائق المتعارف عليها والمتفق على رعيها واحترامها والقطع بصحتها طيلة الاعصر والدهور المتعاقبة بحيث تبدل من نظرة الدارسين او تعدل فيها وتجري تغييرا واضحا في مفهوماتهم ، ووجهات تفكيرهم ، ومنطلقاتهم الفنية ، وبدون هاته الاضافة الملمسة المنشودة ، يغدو هذا المجهود ضئيل الاثر عديم الدلالة .

وليس ضروريا ولزاما ان يعكف على قراءة الدواوين الشعرية جميعها ، باعتبارها من مصادر الثقافة ومنابعها الصافية ، فالشعراء الذين تأتت لهم خصائص الابداع والجدة والنبوغ والاصالة ، وتمثلت في شعرهم روح عصرهم اذ انفعلوا باحداثه وتصادوا معها على غاية من الصدق والانفعال القوي ، والابتعاد عن الزيف ، والافتعال في ضروب الاستجابات والمواقف ، اولاء الشعراء الملهمون المطبوعون المجيدون القيلون بطبيعة الحال في آداب الامم والشعوب .

وعلى هذا لا يحسن ان يعنى بالاحياء والتحقيق ، مما هو مذخور مكنوز في الحجرات الدامسة وفوق رفوف المساجد القديمة ، من دواوين الشعراء الكثار الذين حكى لنا عنهم ابو الفرج الاصبهاني في (الاغاني) او الثعالبي في (يتيمة الدهر) ، وقدما بين ايدينا مجموعة متواضعة من اشعارهم يمكن ان يغني بالاطلاع عليها وحدها ، عن البقية التي تحتفظ بها الاوراق العتيقة ، اذا اريد التعرف على خصائصهم الفنية وسماتهم الشعرية .

اقول لا يحسن او يتوجب التحقيق من تلكم الدواوين والمجموعات المتفرقة في اكثر من كتاب ، الا الصنف الذي يفيد في تصحيح مسلمات فكرية متوارثة ، وتبديل في نظرة الدارسين والباحثين حيال افتراضات واوهام مقطوع بصحتها وارجحيتها ومتها الى الواقع ، دون ان يجرؤ احد على مناقشتها والتشكيك فيها ، وامكان دحضها وتفنيدها ، واحلال الحقائق الناصعة بديلها .

ومن قبيل ذلك ما اصطلح الدارسون والباحثون طيلة عصور متلاحقة على كون القصيدة الجاهلية ، اعني المنسوبة للفترة السابقة على ظهور الدعوة الاسلامية ، تستهل عادة بالوقوف على الطلل الدائر والرسم العافي لتخلص منه الى نجوى الاحباب الراحلين ، وحنثهم بالمواعد ، وتفريطهم بها ، وتحللهم من تبعاتها ووجائبهم حيالها ، وتعدو ذلك الى صف الفرس الذي حمل الشاعر وقطع به المهامة والقفار ، وتحمل معه صنوف المشاق والاخطار ، مما سمي بالمقدمة التي يغشى الشاعر بنسجها وتصيد معانيها واستيحاء عناصرها ، قبل الشروع في صوغ غرضه الاصلي الذي استاثر به وامتلكه وحفزه على النظم ، ولا يخفى ما اتسمت به سائر مقدمات القصائد الجاهلية من التشابه والتماثل في ضروب الاخيلة والاحاسيس وصنوف المعاني والفحاوي ، مما حمل شاعرا جاهليا مجودا ، معنيا بصقل عبارته ، والتدقيق في معانيه ، واحكام مبانيه الفنية ، اعني به زهير بن ابي سلمى ، على التشكي من نضوب الابداع والتجديد في معطيات معاصريه ، وفضح اغاراتهم على معاني القدماء ، دون عناية في استنباط الوحيات الجديدة الدالة على عبقرية الفن واصالة التجربة ، وصدق المكابدة الشعورية .

هذه المقولة المتوارثة عن مقدمة القصيدة الجاهلية لم يعن أحد من قبل في محاولة تلمس خروج صفوة من الشعراء عليها ، ومخالفتهم لتوالها ، وحرصهم على الدخول في غرضهم من غير تمهيد الامر الذي يترتب عليه توفر الوحدة الموضوعية الى حد في القصيدة .

وان يستجلي الدكتور نوري القيسي في شعر ابي زبيد الطائي حرملة بن المنذر المتوفي في ٤١ هـ ، بعد ان عمر طويلا وعاش الحقبة الاوفى من حياته في الجاهلية ، ثمة خروجا على « الطريقة التقليدية التي سار على منوالها القدامى ، وتابعهم بعض المخضرمين ، اذ لم يقف على طلل كما وقف امرؤ القيس وعبيد وطرفة وزهير » حيث انه « كان حريصا على الوحدة العضوية في شعره ، لان المقدمة الطللية تخل بهذه الوحدة في كثير من الاحيان وتبعد الشاعر عن الغرض المقصود مباشرة » (٢) . اقول لعل في هذا الاستجلاء القيم الذي يفيد في نفي سمتي القطع والاطلاق عن المسلمة النقدية الشائعة حول بناء القصيدة الجاهلية ، ما يبرر مجهود المحقق الفاضل ، في العناية بجمع هذا الاثر الشعري من مظانه ومصادره ، ويسوغ ضبطه وتصحيحه ووضعه في متناول الدارسين .

والا فان ابا زبيد الطائي الذي تضاربت الاقوال بشان اسلامه او ابقائه على نصرانيته ، وحضر مجلس الخليفة عثمان بن عفان ، وتحدث له عن الاسد ، واتى على جماع اطواره وحالاته ، وخلص في خاتمة حياته الى الوليد بن عقبة حين صار هذا الاخير الى الرقة ، معتزلا عليا ومعاوية ، وانقطع الشاعر لمنادمته ، حيث مات بعدها ميتة غريبة مدهشة ! بعد امعان في النظر الى السماء واطراح للكاس ، وارسال للنجوى ، واستعجال للمصير المرتقب ، وحتم ما اتسم به فنه الشعري من احتفاء غير مقصود بالمحسنات البديعية قبل ان يستدل النقاد على مواضعها واوجه استعمالها ويتعارفوا على مصطلحاتها ومسمياتها ، اثر تمرسهم بالثقافة اليونانية وامتزاجهم واسترفادهم منها ، فالفت كثير من كتب في العهد العباسي بهذا الخصوص كنقد الشعر لقدامة بن جعفر ، والبديع لابن المعتز ، وبرع في هاته الصنعة الفنية التي ذهبت في كثير من الاحيان برواء الشعر وعفت على طلاوته ، وان اجدت في حمل القراء على التفكير الفلسفي الدقيق في تلمس دوافع القول وحصر ابعاده واستجماع دلالاته ، برع فيها كثير من الشعراء كمسلم بن الوليد وابي تمام ، على حد بالغ من السرف والاغراق .

وكذلك ما كتب له ان يحوز من المنزلة الشعرية لدى الملوك وتقريبهم له واعجابهم بجودة اوصافه الشعرية ، مما حاول الدكتور توكيده واثبات صحته الى جانب « استشهاد النحويين واللغويين والمؤرخين والجغرافيين بشعره واعتمادهم عليه في تفسير كثير من الكلمات او تحديد المواضع » (٣) .

اقول ان ابا زبيد الطائي الذي حاز على هذا القدر من الشهرة الغامرة والصيت العريض ، وتقلب على هذه الحوادث والخطوب التي اوجزنا في سردها وتقصيها واستخراجها من مقدمة الباحث المحقق للديوان ، لا يمكن أن تدنيه من شاو المتنبي وابي العلاء والشريف الرضي ومهيار ممن امتلات حياتهم بالحوادث المريرة ، والتجارب القاسية التي فجرت مواهبهم وطاقاتهم ودفعتهم لقول الشعر العظيم الذي يتالق بالمعاني الرائقة ، والاخيلة البارعة ، والمشاعر الانسانية العميقة ، ويغتني في عديد من نماذجه وشواهده بتجربة الشمول ، والامتداد على حدود الزمان والمكان ، الى جانب صياغته الفنية الدالة على اصالة اللغة وعبقريتها واهليتها لاحتضان التجارب الكبيرة .

فهذا الاستجلاء القيم الثبت الذي يفيده الدكتور نوري القيسي من دراسة شعر حرملة بن المنذر حول مباينته طرائق معاصريه من شعراء الجاهلية والاسلام ، في سنيه الاولى ، في استهلال قصائدهم بالغزل ومناجاة الطلول الدارسة ، فينفذ الى غرضه دون تمهيد او تقدمة ،

مما ينم عن معالجة واهتمام « باغراض خاصة لازمت حياته ، وجاشت في نفسه ، فاثارت لواعج من مشاعر واحاسيس عبر عنها بقصائده ، ولونها بعواطفه التي طبعت هذه المشاعر والاحاسيس » (٤) يؤلف مبررا قويا لبعث هذا الشعر ، واجرائه على الافواه ، وتقديمه للدارسين والباحثين بغية التوفر عليه في تصحيح بعض المسلمات والحقائق النقدية المتوارثة .

فشعر ابي زبيد الطائي على هذا أحرى ان ينسلك في عدادالتراث الاصيل الحري بالاعتزاز والتقييم ، قبل ان ينسب الى المخلفات والتحف النادرة التي يحسن ان تحتفظ بها في المتاحف ، ونقبل على تمليها في اوقات الفراغ ونحن في اشد الغنى عنها .

---

(١) يقول الاستاذ صلاح عبد الصبور في كتابه (حتى نقهر الموت) ص ٦٥ ، « في هذه الايام تشيع الدعوة الى بعث التراث العربي من جديد، ويتحدث عنها بعض الناس في توسع وافراط ، وهم يظنون ان كل ورقة قديمة هي تراث ، وكل صفحة صفراء او مخطوطة ينبغي ان تعاد طباعتها على الورق الابيض الصقيل . وهم ينسون ان القدماء انفسهم كان فيهم الصالح والطالح والجاد والهازل والموهوب والعاطل من الموهبة ، مثل أهل عصرنا سواء بسواء . » (٢) و (٣) و (٤) مقتبسات من مقدمة الدكتور نوري القيسي للديوان .

الهندية ـ العراق **مهدي العبيدي**

•

الحركة النقدية : حول مذهب ابي تمام

تاليف الدكتور محمود الربداوي ـ ٦١٢ صفحة ـ منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (؟)

هذا الكتاب كما ذكر مؤلفه الدكتور محمود الربداوي ، هو الجزء الاول من البحث ، فهو يؤرخ للحركة النقدية التي قامت حول مذهب ابي تمام البديعي ، منذ كان ابو تمام وحتى القرن الحادي عشر الهجري ، وقد وعد المؤلف في المقدمة بانه سيفرد كتابا خاصا يؤرخ لهذه الحركة وشاعرها في العصر الحديث .

والمنهج الذي اتبعه المؤلف في هذا الكتاب هو المنهج الزمني ، فقسم الكتاب الى مقدمة واربعة ابواب ، تحدث في الباب الاول عن الحركة النقدية في القرن الثالث الهجري ، وهذا الباب مؤلف بدوره من اربعة فصول : خص الفصل الاول بالحديث عن النقد عند علماء العربية النحويين واللغويين ، وخص الفصل الثاني بالحديث عن النقد عند الشعراء ، والفصل الثالث بالحديث عن النقد عند الكتاب ، وختم هذا الباب بالفصل الرابع الذي تحدث فيه عن خصائص النقد في هذا القرن .

واتبع الاسلوب نفسه في البابين الثاني والثالث حينما تحدث عن الحركة النقدية في القرن الرابع والخامس الهجريين ، اما في الباب الرابع فقد حشر القرون المتاخرة كلها ، فتحدث في الفصل الاول عن الحركة النقدية في القرن السادس الهجري . وفي الفصل الثاني تحدث عن الحركة النقدية في القرن السابع ، وتجاوز القرن الثامن والتاسع والعاشر الى القرن الحادي عشر حيث تحدث عن النقد فيه في الفصل الثالث من هذا الباب . وختم الباب بالحديث عن خصائص النقد في القرون المتاخرة مجتمعة .

ثم الحق بالكتاب فهارس للاعلام والاماكن ، وفهارس للقبائل والامم والفرق ، وفهارس لابيات الشعر وللاشطار .

للحديث عن هذا الكتاب لا بد من تناول امرين اولهما : اختيار موضوع الكتاب ، وثانيهما معالجة هذا الموضوع .

السؤال الذي يطرح نفسه عند الحديث عن اختيار الموضوع : ماذا اضاف هذا الكتاب الى المكتبة العربية ؟

الكتاب كما يبدو لي ، وكما اراده مؤلفه ، هو في تاريخ النقد اكثر منه في النقد . لان النقد كما افهمه هو خلق وابداع وادراك أبعاد. اما هنا فلا يعدو كونه تجميعا لاقوال السابقين ، وايرادها موزعة على القرون . والمكتبة العربية في قديمها وحديثها زاخرة بامثال هذا الكتاب مع الاختلاف في نمط التاليف . وجيلنا المعاصر متعطش للجديد يمده به اساتذته ، لقد مل التكرار ، انه يريد رؤية ادبائه السالفين على ضوء الدراسات النقدية الحديثة ، التي تبحث عن الزاوية الانسانية في نتاج كل اديب ، هذه الزاوية التي ما زالت حتى الان قابعة في الظل ، بعيدة عن اضواء النقد . ماذا عرفنا عن ابي تمام الذي قامت هذه الحركة النقدية الطويلة الامد حول مذهبه ؟ ماذا عرفنا عنه ، عن الشاعر الانسان فيه ؟ ماذا عرفنا عن رؤياه للانسان والوجود ؟ ماذا عرفنا عن علاقته بفنه ؟ هذه الامور كلها من مهام النقد المعاصر ، والكشف عن هذه الامور هو ما تفتقده المكتبة العربية . اما ان نعيد ما قاله الاخرون ، واما ان نكرر آراءهم ، باعتبارنا نؤرخ للحركة النقدية التي قامت حول مذهب ابي تمام ، فهذا لا يغني مكتبتنا الادبية شيئا ، ولا يزيدها معرفة بابي تمام ولا بمذهبه .

هذا ما يتعلق باختيار موضوع الكتاب ، اما معالجة هذا الموضوع باعتباره موضوعا في التاريخ الادبي ، فلا غبار عليه ، اذ ان الكاتب وفى الموضوع حقه ، فهو لا يكاد يهمل كاتبا او شاعرا او عالم لغة تطرق لذكر ابي تمام ، او استشهد بشعره ، أو تحدث عن فنه ، ناهيك عن الذين افردوا الكتب للحديث عن فن ابي تمام البديعي .

والميزة التي يجب تسجيلها لهذا الكتاب هي ان الكاتب حاول استخلاص الخصائص الفنية التي استقطبت حولها اهتمام النقاد خلال القرون ، كما ان المؤلف حاول ايضا استخلاص خصائص النقد في كل قرن .

اعود فاقول ان معالجة هذا الموضوع كانت معالجة ادبية علمية رصينة محكمة الترتيب .

دمشق **سلافة العامري**